
السيد فرج
كتاب الجمهورية
العدد ١٠
أصول القيادة
ومشاهير القادة

كتاب الجمهورية

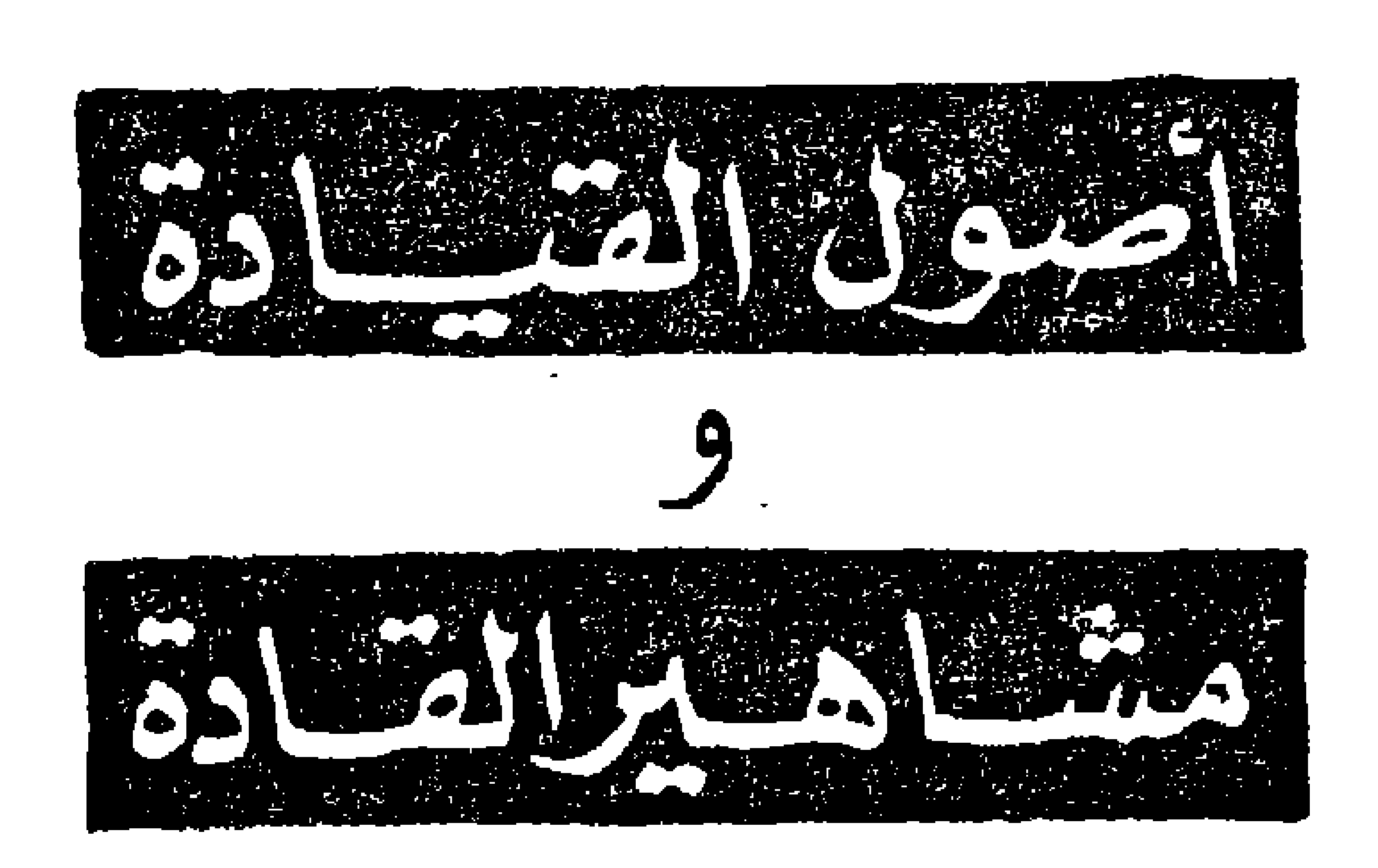
يصدر عن دار الجمهورية للصحافة

العدد العاشر
اول نوفمبر

لا تستطيع أية جماعة من الناس أن تقوم بعمل مشترك - كالحرب - من غير قيادة تنظم شئونها وتعبئ قدراتها وتضع الأفكار والخطط التي تبلغ بها غاياتها ..

وللقيادة الحربية أصول ومواصفات قديمة ، وقد نمت وتطورت وصارت في مقدمة عوامل النصر ..

وكبار القادة الذين حركوا آلاف وملايين البشر في وادي الموت وقرروا مصائر أوطانهم في ساعات الخطر الداهم .. كانت لهم مزايا ومواهب متعددة ، وفي مقدمتها الشجاعة والكد وتقديس الشرف العسكري ومعرفة الشعور والعواطف التي تؤثر في الرجال ..



بقلم: السيد فرج

القيادة

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »

بهذا الحديث الشريف يمكن ان يخط اول سطر فى دستور القيادة ، ففيه توضيح لأهمية القيادة الرشيدة فى اى مجال ، واهمية القائد المحنك فى كل معترك .

وقد حملت الينا صفحات التاريخ حكما رائعة وتعريفات ذائعة ، وكتبا وتسجيلات شتى لمشاهير الحكام والقادة والمؤرخين تحدث بأهمية موضوع القيادة والقادة ، كما ان الحروب المتتابعة جاءت بكثير من الدروس والآراء عن القيادة الناجحة والقائد الموفق .

وقد أجمع القديم والجديد على أن القيادة هبة واكتسابه .

وأنها تولد مع الشخص طبيعة فى ذات نفسه ، كما انها تكتسب بالمرانة والتجربة .

والحرب — فى عرف ثقاتها وأبطالها — علم وفن ، ومن ثم كانت القيادة مزيجا من هذين ، فمن روح القائد وهواتف نفسه ومزاجه يشع الفن الحربى ، ومن خبرته وتجاربه ومرانته يبزغ العلم الحربى ، فترى : الطبيعة الجندية ديدنه ، والمسئولية عن الرعية كامنة فى أعماقه .

والقيادة الحربية نوعان : أحدهما تهيئة وسائل القتال ، وهى القيادة العليا التى غالبا ما يضطلع بها رؤساء الدول أو الحكومات والثانية ادارة القتال ، أى تنفيذ الخطط فى ساحة الحرب .. وقد وجد النوعان منذ القدم ، وان كانت الاختصاصات قد تزايدت وتطورت تطورا بينا على مر الزمن .

وقد أبرز تاريخ الحرب قوادا لم يتعلموا فى مدرسة ولم يكن لهم بقواعد الحرب سابق معرفةولكنهم كانوا قوادا بالفطرة تعتمل فى نفوسهم الرغبة فى ادارة الجماعة وتوجيهها ، وتسول لهم عقولهم الدقيقة وضع الخطط واحكام تنفيذها . ومن هذا الرعيل كان عمر بن الخطاب يملك « طبيعة الجندى » ظاهرة وباطنة ، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار . وتلازمه كأنها عضو من أعضائه . وكذلك كان جورج وشنطن الريفى الذى ترك مزارعه ليقود الجيش فلما أتم مهمته أراد أن يعود من جديد ليحيا حياته السلمية البسيطة .

كذلك أظهر التاريخ قوادا من صفوفالجند ، لم يلتقوا بالثقافة العسكرية فى معهد ولم ينتظموا فى دروس علم الحرب بالطريقة التى يعد بها القواد فى أيامنا وانما عركتهم الحرب وساعدتهم طبيعتهم وخواصهم الكامنة ليكونوا قادة ممتازين كالمارشال روبرتسون ، والمارشال سليم وغيرهما ممن حققوا قول بونابرت المأثور :

« كل عسكرى يحمل عصا المارشالية فى جعبته »

وقد تلقينا تعريفات عديدة عن « القيادة » تتفق فى عناصرها وان تنوعت الفاظها ، ومنها ذلك التعريف الذى ذكره الكاتب الفرنسى الذائع الصيت « أندريه موروا » :

القيادة هى أن يسير القائد بمجموعة من الجند ، خاضعين لنظام معين ، نحو غرض معين .

وهى كلمات تبدو سهلة ، ولكنها من نوع السهل الممتنع الذى يضم غاية المطلوب فى أبسط أسلوب ، فقد عرف القيادة تعريفا صحيحا ، وعنى القيادة الفعلية لقوات نظامية ، نحو اهداف مرسومة .

وبذلك حدد مفردات القيادة : **القائد ، الجنود ، النظام ، الخطة الهدف .**

ان نقص أحد هذه المفردات يجعل بقيتها غير ذات موضوع .

من هذا نرى ان القيادة هبة واكتساب .

وانها اذا كانت تنشأ مع البعض كطبيعة ملازمة ، الا أنها مما يمكن اكتسابه بالدراسة والتجربة والمرانة .

فاذا كان هناك قادة عظام بالفطرة ، فانه من الميسور فى العصر الحديث أن يربى فن القيادة وأن ينشأ قادة ممتازون من جميع الرتب بفضل التوجيه الصحيح والتدريب الجيد .

القائد الجيد

« يجب ان يعرف القائد كيف يعطى جنوده تعييناتهم ، واى مؤن أخرى لازمة للحرب ، يجب ان تكون لديه ملكة وضع الخطط وقدرة عملية لتنفيذها ، يجب ان يكون دقيقا حمولا لماحا ، طيبا وقاسيا ، بسيطا ومبهما ، مخادعا ويقظا ، كريما وبخيلا ، متعجلا ومتمهلا .

هذه وغيرها من الصفات ـ طبيعية ومكتسبة ـ يجب ان يتحلى بها القائد ، وعليه ان يكون ملما بمهنته فان جنودا يساقون بغير نظام لا يمكن أن يعتبروا جيشا ، مثل كومة من مجموعة مواد البناء لا يمكن ان نعتبرها بيتا منيفا » .

« سقراط »

لقد جادت الأفكار بأوصاف عديدة وتداولت المراجع تعاريف شتى لما ينبغى أن يتحلى به القائد من صفات وميزات .. وقد استعرضها المارشال ويفل وطابق بينها ، ومن عجب أنه لم يجد وصفا كاملا تنطبق فيه الشروط فى صدق وعمق كذلك الوصف السهل الممتنع الذى جادت به قريحة سقراط قبل آلاف السنين .

ولقد اجمع الثقاة والخبراء بفن القيادة على كثير من خصائصها ، ولعل أهم ما يتجمع لطبيعة القائد فى صفتها المثلى : الشجاعة والحزم ، والصراحة والخشونة ، والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقرير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز فى حدود التبعات أو المسئوليات .

واذن ، فمن خصائص القائد الجيد ما هو طبعى ومنها ما يمكن اكتسابه ، فما هى الخصائص التى يجب أن يعمل القائد لاكتسابها وتنميتها حتى تصبح ملازمة له ، وحتى تتاح له القيادة السديدة ، سواء فى جماعة صغيرة أو مجموعة جيوش بأسرها .

(١) الطاعة قبل القيادة :

لا يستطيع الناس أن يشرعوا فى عمل مشترك ، كالحرب ، وأن يحصلوا على ثمرات النصر الا اذا قام واحد منهم بتوجيه نشاطهم وادارة دفتهم فى كل لحظة نحو غرض واحد محدد ، فبغير قيادة لا يكون عمل عسكرى ، ومن غير طاعة لا تكون قيادة .. فالطاعة أوجب الواجبات وبدونها لا تنعقد سلسلة القيادة ، ولا يكون نظام أو انضباط .

هذه الصفة ، الطاعة ، هى خميرة الجندية ، التى ينبغى أن تحيا دائما فى نفوس القادة ، من قائد المجموعة الصغيرة الى قائد الجيوش الكبيرة ... ومن ثم كان تعلم الطاعة واعتيادها سابقا لتعلم القيادة وفنونها .

انظر الى القائد الخالد « ابن الوليد » أمير الجيوش العربية ، تأتمر بأمره ويشير اليها فتنطلق فى وادى الموت ، ويظل يتنقل بها من نصر الى نصر حتى اذا أتاه أمر الخليفة بأن ينزل عن القيادة صدع بالأمر فى الحال ، واتخذ مكانه فى الصفوف تحت امرة القائد الجديد !

وانظر القائد « الأستاذ » ويفل يحمل على قوات المحور في صحراء مصر ، ولا تكاد قواته تقف على أقدامها لقلة عددها وعتادها ولقوة عدوها ، وفي هذا المأزق تأتيه الأوامر العليا بارسال بعض قواته الى معركة اليونان ، فيصدع بالأمر ، ويصدر في ذلك عن « طبيعة القائد » المطبوع على الطاعة ، أم القيادة .

الطاعة اذن واجب لا هوادة فيه ، وواجب القائد أن يتلقى الأوامر وينفذها اذا استقام الأمر واستقرت التبعة ، وواجبه أن يراجع اذا اتسع مجال المراجعة ، فالضابط الحر الأصيل حري بأن يكون عليما بموقع الطاعة وموقع المراجعة وموقع المشاورة حتى يصل الى الأمر الذي يحمل التبعة فيه .

(٢) الشرف العسكرى :

لابد أن يحتل الشرف العسكرى اعتبارا ساميا في نفس الضابط ، فالخلق مقدم على الذكاء ، **وقد كانت قوة الخلق أهم خصائص القادة العظام .**

وللجندية تقاليد تقوم على الشجاعة والنخوة والغيرة على الشرف وتتنافى مع الكذب والرياء والنفاق ، وقد كان يحرم من شرف الجندية من يثبت عليه التراجع أو النكوص في كلمة الشرف التي أخذها على نفسه .. وكان مثل هذا الجزاء يوقع على السكيرين وعلى كل من تثبت عليه جناية التهجم على السيدات ، أو اتيان أمر مشين يتنافى مع قدسية الجندية .

وناهيك بما يكون من أمر قائد يتقاعس عن أداء واجبه ، أو يتخلى عن جنوده في ساعة الحرج بالتسليم أو بالفرار .. فذلك هو الموت قبل نهاية العمر ولله در المتنبي الجندي الشاعر اذ يقول عن رذيلة الفرار :

وأمر مما فر منه فراره وكقتلة الا يكون قتيلا

ان شرف الجندية غال ، ولابد أن يتخذ القائد سلوكا يميزه عن بقية المواطنين بحيث يدفعهم الى احترامه ، وأن الشعار الذى يجب أن يتخذه القائد هو :

« الموت ولا العار »

واذا أوذى شرف القائد فلا شيء يكفر عنه الا الدم ».

(٣) الثقافة العامة :

الثقافة العامة هي المدرسة الحقيقية للقيادة ، وبدونها تذهب المعرفة العادية (المعلومات العسكرية) هباء وليس بين عظماء القادة من لم يغترف من نتاج الفكر البشرى واعتمل بالنزعات الانسانية ، واكتسب من دراساته ، الذوق والشعور بالفن ».

وفى هذا يقول مارشال فوش :

« ان من خصائص دراسة الآداب والفلسفة والتاريخ خلق الأفكار من العالم الحي ، وبالتالى اكساب الذهن مرونة وسعة افق ، وحفظه في حيوية نشيطة خصبة مستمرة » .

ان القائد القدير — كما يصفه مارشال فايول — هو الذى **« يجمع الي متانة الخلق سلامة الذوق ، وكثيرا من التحصيل »** لأن المعرفة لا تكتسب الا بالاطلاع الواسع .

(٤) التدريب العملي :

يجب أن يكون القائد محبا لمهنته عارفا بمشاقها ومسئولياتها متجاوبا من أعماق نفسه مع مشكلاتها ومفاجآتها ومستعدا للعمل فى أية لحظة وتحت وطأة أية ظروف ، فمعترك الحرب هو المعلم الأول الذى تتلمذ عليه بونابرت فقاد جيشا كاملا وهو فى السادسة والعشرين ، والاسكندر الذى كسب معركة « أربلا » وهو فى الخامسة والعشرين ، وبايار الذى قذى حياته الطويلة فى حروب متتابعة ، ودافو الذى اشترك فى القتال ثلاثة وعشرين عاما .

ولكن الحرب معلم قد لا يتسنى لكثير التلمذة عليه فى كل وقت . واذن فلابد من ميدان حرب مصغرة ، ذلكم هو : ميدان التدريب العملى .

كتب مارشال فايول فى هذه النقطة يقول :

« لم يفطن الناس الا قليلا الى أن كثيرين من كبار قواد الجيش فى الحرب الأخيرة كانوا أساتذة المدرسة الحربية مثل فوش وبيتان .. ولأول مرة شوهد أساتذة يصبحون قوادا عظاما ، والفضل فى ذلك للنهج الواقعى المتبع للتعليم » .

فالأستاذ الذى ظل سنوات عديدة مع تلاميذه يقوم بحل مشاكل الحرب كثيرة التنوع والاختلاف لايمكن أن تراه مرتبكا فى ساحة المعركة اذ يخرج الحل من دماغه تام الاعداد .. ويشترط لهذا أن تكون هناك عقول راجحة ، حرصت على حصر التعليم فى مسالك العقل المستقيمة ، مخصصة لكل قوة من القوى التى تتعامل فى سير الحرب نصيبها اللائق .

وكان من عوامل قوة المارشالات ويفل ورومل وبيتان انهم قاموا بالتدريس فى المدارس الحربية وأنهم قادوا قواتهم فى المناورات التدريبية بنجاح تام ووفقوا فى حل مئات « المشروعات الحربية » فى فترات التدريب وأيام التدريس .

ان القيادة الناجحة هى التى تتسم بعقلية عملية ، وقبل أن يصبح « وليم سليم » فيلد مارشال كان قد درب وقاد وحدات المشاة من فصيلة وسرية وكتيبة ولواء الى أن قاد مجموعة جيوش قيادة فعلية فى مختلف الميادين والأجواء ، وكانت التجارب العلمية هى التى زودته بذلك المعين الهائل من الكفاءة الحربية حتى أصبح من أحسن القواد فى زمانه .

(٥) الخصائص الداخلية :

يقول مارشال ويفل : ان القائد الناجح يجب أن يكون على خلق . أنه يعرف هدفه جيدا ثم تكون له من الشجاعة وقوة

العزيمة ما يمكن له من تحقيق هذا الهدف تماما .

والحق أن القائد في حاجة لكل فضيلة بشرية ، ولكن هناك صفات خاصة اكد عليها القادة العظام واتفقوا على لزوميتها ، وفى مقدمتها :

ا) الارادة : يجب أن يعرف القائد كيف يتخذ قرارا ، وكيف يتحمل مسئوليته .

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فان فساد الرأى أن تترددا

وقد كان الامبراطور نابليون يقول « ان الثبات يذلل كل صعب » والقائد المحنك هو الذى يجمع المعلومات ويقدر الموقف قبل أن يحزم أمره فمتى استقر على أمر جعل منه قرارا نافذا ، اذ ليس أكثر تثبيطا للهمم من التردد .

ب) الثبات على الجهد : هى الصفة المكملة للارادة وهى نوع من الصبر المطلوب من القائد .

لقد وصفوا العبقرية بأنها نتاج جهد عظيم ، وأن تسعين فى المائة منها جهد وعرق ، والباقى للحظ ..! فالعسكرى وليم روبرتسون قضى أحد عشر عاما فى الصفوف قبل أن يرقى الى رتبة ملازم ثان ؟ وذاق فى هذه الفترة الطويلة مرارة الحبس والعناء فصبر عليها ولولا ذلك لانتهى جنديا عاديا . ولكنه كان رجلا يتميز بالصبر العظيم والثبات على الجهد ، وكانت حياته فى أدوارها المختلفة عسكريا ، وضابط صف ، وضابطا تتسم بالنشاط والأدب . وهو ما اشتهر عن الفيلد مارشال سير وليم روبرتسون .

وكان نابليون يقول : ان أعظم الأخطار تتهددنا فى لحظة النصر .

جـ) الشجاعة الفطرية : وهذه فضيلة لايصاحبها الرياء والخبث ، وهى اول دوافع الهجوم ، كما أنها الصفة التى تعبر بصاحبها معترك العنف أو حالة المفاجأة .

وقد كان فولتير يمتدح فى القـائد البريطـانى مارلبورو « **الشجاعة الهادئة وسط الأخطـار الماحقة ، والهـدوء النفسانى فى غمرة الويل** » . ويعتبرها السـبب الأول فى نجاح ذلك القائد الكبير الذى يعتبره ويفل أعظم قائد فى التاريخ .

وقد كان نابليون يسأل : هل هذا القائد موفق ؟ وقد فسر لنا ويفل هذا السؤال بقـوله : ان نابليون كان يقصـد أن يسأل « هل هو جرىء ! » فان القائد الجـرىء هو الذى يحالفه التوفيق ، ولا يمكن أن يكون القائد موفقا مالم يكن جريئا .

ولعل من أبرع الأوصاف فى كافة اللغـات ما وصـف به المتنبى أميره سيف الدولة بن حمـدان فى معترك القتـال اذ قال :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمـة ووجهك وضاح وثغرك باسـم
تجاوزت مقدارالشجاعةوالنهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم

د) الكتمان : وهـذه فضـيلة من ألزم لوازم القـائد ، وكان « ريشليو » يصفها بأنها روح الأعمال ، وفى التاريخ أن أحد الملوك باح لزوجته بأسرار خطته ، ولكنها نقلتها فى الحال — كما هى عادة السيدات ! لاحدى وصيفاتها وظل السر يتنقل بسرعة عجيبة حتى بلغ مسـامع العـدو ، فكلف ذلك الملك عرشه ورأسه .

انه لايكسب الهيبة شىء كالصمت ، فان الكلام يوهن الفكرة فتتبدد الشخصية بينما يتطلب العمل « التركيز » .

وكان عظماء القادة لايتكلمون ، ولم يكن هناك من يضـارع نابليون فى صمته .. وقد علم قواده ان يحيطوا أنفسـهم بمثل صمت الرهبان ، ولم تكن شفاههم تنفرج الا عن النطق بالأوامر .

هـ) الصلابة : وهذه الصفة ملازمة لجميع أسلحة وعتاد الحرب ، وهي أيضا لازمة للقائد ويرى المارشال ويفل أنك اذا بحثت عن أسباب اخفاق عدد كبير من القادة فسوف تجد أن أهم هذه الأسباب جميعا هو افتقارهم الى « الصلابة » .

وقد اشتهر عن المارشال جوفر انه كان يأبى على نفسه الاستسلام لعواطفه حتي لقد شكا بعض أصدقائه من صلابته .. ولكن هذه الصلابة هي التي مهدت السبيل لانقاذ قوات الحلفاء في أوروبا .

وكان خالد بن الوليد مشهورا بالصلابة وقال عنه الخليفة عمر « ان سيف خالد فيه رهق » ولكن هذه الشدة هي التي جعلته سيفا من سيوف الله وقائدا من قواد التاريخ .

ان خير القواد من كان شديدا لا تهزه كارثة ولا توهن عزمه مفاجأة .

وهكذا كان عظماء القادة ، فكان هانيبال يقول : « لا أنظر خلفي مهما حدث » وكان لودندرف يصيح : القتال الى النهاية .. الى الموت » .

والشاعر العربي يقول :

وقلدوا أمركم لله دركمو
رحب الدراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده
ولا اذا عض مكروه به خشعا

و) القدوة الحسنة : لقد أتينا على سرد بعض الصفات والخصائص التي يجب أن تتوفر في القائد لتعلو مكانته وتصح قيادته ، وهناك ميزات أخرى تعد مكملة لشخصية القائد ، ومنها مظهره العام .

وليس آذى للنظر من منظر ضابط غير معني بهندامه ، فالضابط يستطيع — حتى في ظروف خدمة الميدان — ان

يكون حسن الهيئة حليقا نظيف الملبس حتى يوحى مظهره وتصرفاته بهيبة القيادة ونشاطها واكتمالها .

والجنود يتأثرون بقائدهم ويقتدون به ، مما يقتضى الضابط أن يكون مثلا لجنوده ، وأن لايتطلب امرا الا كان السابق اليه المتمثل به فالمثل خير معلم ، وكيفما يكون الضابط يكون جنوده .

ومن واجب القائد الذى يوجه جنوده فى وادى الموت ويتطلب منهم البسالة والاقدام والتضحية ان يكون متحليا بهذه الصفات.

وقد القى المارشال سليم درسا على الضباط قمينا بالاعتبار ، قال :

« فى ساعة حرجة من ساعات التقهقر صادفت احدى السرايا تفتح طريقا فى الغابة ، وأنبأونى أنهم فى حالة سيئة ، فألقيت عليهم نظرة واحدة ، وقلت لنفسى :

يا الهى انهم أسوأ مما كنت اظن .

وسرت حول ركن الشفرة فوجدت الضباط يهيئون لأنفسهم « شايا » .

حقيقة كانوا مجهدين كالجنود ولكن ليس هذا هو لب الموضوع لأن :

« الضباط وجدوا ليقودوا الجنود » .

وانى اناشدكم بصفتكم ضباطا الا تأكلوا أو تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا أو حتى تستندوا الى شجرة ، حتى تتأكدوا شخصيا أن جنودكم قد هيأت لهم الظروف أن يفعلوا ذلك قبلكم) .

« القائد الجيد » مجموعة صفات ومميزات منها ما تهبه الطبيعة ومنها ما تكونه التربية والنشأة والأفكار الخصوصية ، وأهم الصفات التى أجمع عليها الثقاة : حب المهنة ــ الجراة ــ الثقافة العامة ــ المرانة العملية .

كيف نربى فى القائد فن القيادة؟

انك تستحق لقب القائد العظيم :

اذا : صففت قواك بصورة فنية .
اذا : ركزتها بطريقة صحيحة .
اذا : دفعتها للقتال فى الوقت المناسب
اذا : أدرتها بحكمة .
اذا : كافأتها بحق .
اذا : حرستها بعنـاية .
اذا : وزنت الامور بدقة .

الحكيم الصينى (ساما)

(اولا) التنشئة الديموقراطية :

اننا نريد جيشـا من الأحرار ، ولا يـكون ذلك الا بضـبـاط أحرار ، ضباط يقدسون مهنتهم ويؤمنـون بأهـداف وطنهم ؛ ويعملون فى جد وصـمت .

ولقد انتهى العهد الذى كانت الأوامر والتعليمات تصدر فيه بطريقة جافة تلزم بالتطبيق الحرفى ، مما كان يحد حرية الفكر، ويقتل روح الابتكار ويجعل تنفيذ الأوامر عن انصياع ورهبة ، وليس عن اقتناع ورغبة .

ان الوسيلة الفعالة لتربية فن القيادة فى الضابط هى أن نغير أساليب التدريب ونظم المعاملة فنضعها على وتيرة جـديدة

تحوطها روح الديموقراطية التى تثير فى العقل عوامل الاقتناع والرضى .

يجب أن تعطى للضابط الفرصة للمناقشـــة حتى يفيـد ، ولابداء الرأى حتى لايتقيد ، ولحرية العمل حتى يتعود .. ومن ثم تكون ديموقراطية تساعد على ابراز المواهب وتمرين العقل وتنمية الشعور بالمسئولية .

ان طريقة اعطاء الأوامر بكافة التفاصيل ليس لها نتيجة الا حرمان القادة المنفذين من حرية التفكير ومن التصرف المناســب الذى يقتضيه الموقف الفعلى .

والطريقة الصائبة هى أن تصدر التعليمات العامة ، فيتلقاها القادة الفرعيون ويشرعون فى تنفيذها فى وحداتهم على طرائق تفكيرهم الخاصة .. أما التقيد الحرفى بالاوامـر فيصـنع من القائد « جروشى » آخر يورد قواته موارد الضياع كما فعل فى معركة « ووترلو » اذ وقف عند حدود الأمر الذى أعطى اليــه بمنع الجنرال البروسى بلوخر ، وظل مكانه حتى انتهت المعـركة دون أن يفعل شيئا لانقاذ فرنسا من الهزيمة .

حدث المارشال بيتان قال :

كنت فى زمن الحرب اذا رشح لى ضـــابط جـديد فى هيئة اركان الحرب أصطحب هذا الضابط الى الميدان وأوضع تكتيكا خاصا يتفق مع طبيعة الموقف وأتــولى بنفسى تحـديد طريقــة الحل . فاذا رايت أن الضابط الجديد يوافقنى على أقوالى (على طول الخط) أمرته بالعودة فورا من حيث أتى !

(ثانيا) تنمية الشعور بالمسئولية :

ان تنشئة القــواد تستهدف خلق الشخصيات وتعهدها ، دون أن يفضى هذا الى تشـجيع الادعاءات والأستبداد بالرأى ولا ريب أن اظهار البداهة لا يجدى نفعـــــا اذا كانت النزعة

العسكرية جامدة عقيمة ، والقانون يزداد تناقضا كلما ازداد تعقدا .

قبل حروب بونابرت كان الجيش عبارة عن مجموعة واحدة تأتمر بأمر رجل واحد وتتحرك بحركة رجل واحد فى أساليب معدودة وبأسلحة محدودة .. وكان هناك قائد واحد مسئول عن جميع ادوار المعركة ! يضع الخطة ويعطى الأوامر ويراقب التنفيذ ويعدل حسبما يشاء ويفعل ما يريد !

ولكننا اليوم فى حال جديد ، زاد عدد الجيوش وتنوعت الأسلحة ، وتعددت المهام فى ميدان القتال واصبح الجيش مكونا من وحدات عديدة واقتضى ذلك ظهور قيادات كثيرة مسئولة تعمل مع القائد العام فى تنفيذ الخطط التفصيلية .

فالمائة الف التى كان يقودها رجل واحد أصبح يقودها اليوم عشرة آلاف .

انتهت المركزية ، واصبح لكل جماعة قائدها واسلحتها وواجبها .. وهذا يقتضى أن يكون الضابط على قدر كبير من المعرفة ، وعلى علم أكثر بالمسئولية العظمى التى تحمل أكتافهم القوية .

ولا ريب أن الشعور بحرية العمل ومسئوليته يريدان فى القائد روح الافتخار والثقة ، الأمر الذى يقتضى أن تترك لقوات الوحدات حرية التصرف فى جميع الشئون فى السلم — وذلك طبعا فى ظلال الخطة العليا العامة — حتى يكون للتعود على ممارسة الأعمال فى فترات التدريب أثره فيما بعد ، أى فى ميدان القتال .

(ثالثا) التدريب العملى :

ان التعليم المستمر والتدريب العملى هما الواجبان الأساسيان لجميع القواد ، كبارا وصغارا .

واذا كانت الحرب هى المعلم الأكبر فان التدريب العملى المتقن هو المعلم الأول . وخاصة اذا احيط بالجدية التامة وشابه ظروف الحرب واحوالها المتنوعة .

والمشروعات فى دراسات المشكلات سيصادفها القائد فى الميدان على حسب رتبته « والمناورة » الكاملة هى الوسيلة المفضلة لاتقان التدريب .

والقاعدة الأولى فى التدريب : استكمال جميع الوسائل التى تمكن من ايجاد ميدان قتال بكافة ظروفه المنتظرة (كالأحوال الجوية ، والأرض والليل والذخيرة الحية) فالتدريب الصحيح لا يتم فى قاعة المحاضرات وانما فى الخلاء بقوات وأسلحة وعتاد كاملة بقدر المستطاع وفى ظروف شبيهة بظروف المعركة المرتقبة .

(رابعا) دراسة التاريخ :

ان فن القيادة العسكرية يتكامل بانتهاج دراسة جديدة ، ولقد نوه المحاربون العظام والقادة بأهمية دراسة التاريخ الحربى .

والغاية من دراسة التاريخ الحربى دراسة صالحة هى تدريب العقل وشحذه وتنمية قوة الابداع ، وتسمية الأفكار المتحررة الطليقة من ربقة التقليد والروتين ، وليست الغاية منه ــ كما يسىء البعض فهمها ــ هى التشبث بالشكليات والتقيد بالصور التى تنطبع فى الأذهان عن المعارك الغابرة .. اذ ليس ثمة منهج أو مدرسة فكرية يتحتم اتباعها .

لم يكن القادة الذين يدرسون خطط اسلافهم يفعلون نفس الشىء ، وانما كانوا يفيدون على طرائقهم الخاصة وعلى حسب ظروف حربهم ، فكانوا أحرارا فى عقولهم وأعمالهم وكانوا ينتجون أفكارا جديدة ويأتون بمباغتات ومفاجآت فذة .

والتاريخ الحربى يحدثنا بتطور نظريات الحرب وأفكار القدامى وتصرفاتهم فى الأزمات والمآزق ، وهو بذلك يمكننا من التفكير فيما كنا نفعل فى مختلف المواقف .

وقد كان يولبوس قيصر يدرس حملات الاسكندر ، وكان مولتكه يطالع بعمق نابليون بونابرت ، فالتاريخ لهؤلاء القادة كان بمثابة الأساس أو القاعدة وفى هذا يقول المارشال فوش :

(اننا نفحص الحقائق التى أمدنا بها التاريخ ، من قرب وتحت المجهر ، دعنا نفعل هذا ونحن فى ظروف وأحوال مشابهة للمواقف التى نجد انفسنا فيها كالوقت والمكان والطقس والتعب وأسباب الضيق والمواقف الغامضة ، مما يحيط بالسرية والكتيبة واللواء .. الخ . دعنا نستعرض الصعاب وكيف نتغلب عليها ، دعنا نناقش القرارات التى اتخذوها ، والنتائج التى وصلوا اليها لنفحص المشكلة ثانية على وجه التحديد) .

ان تعليمنا يجىء نتيجة لخلاصة الدراسات الدقيقة ، وبالطبع لا يوازن التاريخ الحربى ما للتجربة العملية « الحرب » ولكنه يفتح الطريق للتجربة .

وكلما نقصت الكفاءة في الجيش فابحث عن السبب تجده في قلة الدراية بالتاريخ الحربي والمعلومات العامة .

(خامسا) تدرج المعلومات :

اذا كان من الآمال الكبار أن يكون كل قائد على دراية واسعة والمام تام «بكل شيء» فى المهنة وماحولها ، فان من الآمال المعقولة أن يكون القائد ملما بمقتضيات قيادته .

ولهذا شرعت الدول المتقدمة فى تنظيم برامج دراسية وثقافية لضباطها حسب رتبهم ومدة خدمتهم ، وقد نضجت هذه البرامج حتى أصبحت تتناسب مع اغراضها فلكل رتبة دائرة معلومات لا غنى عنها .

وفى الولايات المتحدة ينظمون البرامج الثقافية للضباط فى خمس فترات كل منها ذات ابواب ومواد محددة تتناسب مع احتياجات الخدمة : برنامج للمتخرجين حديثا ويستمر ثلاث سنوات ، ثم برنامج الاعداد لكلية أركان الحرب ، وبرنامج ثالث خلال الدراسة بكلية أركان الحرب ، ورابع للفترة ما بين كليتى أركان الحرب وكلية الحرب .. أما البرنامج الخامس فلمن يتخرج من كلية الحرب (*)

وبهذا يتحقق التدرج الطبيعى ، ويتحقق مطلب كل رتبة ، ويظل الضابط يتلقى المزيد من المعلومات الضرورية مرحلة بعد مرحلة حتى يصل الى أعلى درجات القيادة وقد صارت له ثقافة حافلة واحاطة شاملة .

(سادسا) اعداد الميسات والمكتبات والملاعب :

طابع الجندية التقشف ..

ولكن من الأهمية بمكان أن يكفل للضابط مستوى معيشيا لائقا لا بهرج فيه ولا ترف .

ولا مندوحة من العناية بميسات الضباط حيث يقيمون ويعيشون معظم وقتهم على مقربة من ثكنات جنودهم .

فإذا ما أعد للضباط اقامة طيبة فى مبنى لائق وحجرة مريحة يحظى فيها بنوم هادىء وقراءة هادئة .. فذلك يبعث فيه الرضى والشعور بالذات وينمى الثقة والارادة .

ولابد من مكتبة حافلة يلجأ اليها الضابط فى وقت فراغه يقلب محتوياتها وينتقى ما يتفق وذوقه ومشربه من الكتب والمؤلفات العسكرية والتاريخية والثقافية ، فتزداد معلوماته ويتسع أفقه وتتنوع ثقافته .

والى جانب الميس والمكتبة ، لا غنى للضباط عن ملاعب الرياضة المنوعة المجهزة بجميع لوازمها ، فالجيش احوج ما يكون الى قواد رياضيين ماديا ومعنويا ، قواد رشقاء اشداء صحت أجسامهم وعقولهم وروحهم .

واذا كان العقل السليم فى الجسم السليم ، فان الجسم السليم هو أساس التدريب بل هو أساس النصر .

وقد كان ولنجتون يقول : « كسبنا المعارك فى ملاعب الرياضة » .

لكى نربى فى القائد فن القيادة يجب ان يجد حوله « جوا » ديموقراطيا يتلقى الأوامر وينفذها اذا استقام الأمر ويراجع ويناقش ويشاور ، ولا تكون ثمة مركزية تحرم القائد حرية التصرف والابتكار وأن يكون التدريب عمليا يتمشى مع ظروف الحرب ، وان يدرس التاريخ الحربى دراسه تقدير ومواجهة وموازنة ومقارنة .

كما يجب أن يجد الضابط « ميسا » راقيا و « ملعبا » مجهزا و « مكتبة » عامرة ».

أهمية وجود القائد الجيد

« لا يوجد جندي رديء ، بل يوجد ضابط رديء » .
(بونابرت)

ان تعبئة آلاف الجنود ليست المهمة الرئيسية في تجهيز الجيوش للنصر ، ولكن المهم هو وجود القواد الأكفاء .. فعلى قدر كفاءة الضابط تكون كفاءة رجاله ، وان روحه لتشيع فيهم جميعا .

وتاريخ الحرب شاهد صدق على أن القائد الجيد هو الذي يحرز النصر ، فالاسكندر هو الذي قهر الفرس وليس الجيش المقدوني ، وقيصر هو الذي أخضع الغال وليس الجيش الروماني ، وفردريك الأكبر هو الذي دافع سبعة أعوام عن روسيا ضد دول اوربا الثلاث .

ان كفاية القائد امر لابد منه ، وليس القصد من « الكفاية » هي المعلومات العسكرية فحسب بل روحه وتجاربه مع جنوده مما يجعلهم يقدمون في غير وجل ويستبسلون عن رضى .

وقد حدث خلال الحربين العالميتين أن شوهدت فرق سيئة كانت تقاتل متقهقرة وتستسلم للفزع فاذا بها تتحول الى الشجاعة والمقاومة بمجرد ان يتولى قيادتها قائد كفء .

بالقيادة السديدة استطاع بونابرت أن يحمل جنودا جياعا أنصاف عراة عبر جبال الألب ، واستطاع وشنطن أن ينتصر بجنود سذج لم يمتشقوا الحسام من قبل .

وعندما ولى عقبة بن نافع قيادة الجيوش العربية لغزو افريقيا قال التاريخ أن هؤلاء العشرة آلاف الذين نعموا بقيادته أحسوا روحا قوية تغمرهم وتشحذ عزائمهم تحت لوائه ، حتى كان الواحد منهم بألف ، فما منهم الا محب للجهاد مستهين بالأهوال مرحب بالموت كفائدة ، وزحف بهم عقبة فما شهد الروم ولا البربر زحفا اشد هولا من هذا الزحف !

ان وجود القائد الجيد يعمل عمل السحر فى نفوس مرؤوسيه من القواد والجنود وكان عمر بن الخطاب يصف الزبير بن العوام بأنه « رجل بألف رجل » وكان جنود « روبرت لى » يقاسون مرارة الهزيمة مع آلام الجوع والمشقة ، وما ان تهل عليهم طلعته حتى يهبوا للقائه ناسين متاعبهم غير آبهين لهزائمهم .

ذلك لأنه كان قائدا يقدسه جنوده

وليس القصد من القائد هو القائد العام ، وانما القصد هو كل قائد ، فى أية رتبة ، وعلى رأس أية وحدة ، فالجيش سلسلة من القيادة تعمل كلها معا ، فاذا أصاب احدى حلقاته عطب تأثرت معه السلسلة كلها .

يجب أن نعد القادة بنفس الروح التى نعد بها فريق كرة القدم الذى لا يتوقف مصيره فى المباراة على مجهود رئيس الفريق وانما بمجهود الجميع تجرى المباراة حسب الخطة الموضوعة ، ويحرز الفوز والغلبة .

كيفما يكون القائد تكون الجنود .

واذا وجد القائد الجيد انتظمت سلسلة القيادة وسلمت روابط الكيان العسكرى وارتفعت الروح المعنوية ، وبرزت قوة الجيش وأصبح النصر قريب المنال »

العبقرية العسكرية ..

« ان افضل انبياء المستقبل هو .. الماضى » .

هكذا قال لورد بيرون فى أشعاره ، وهو قول يجب على العسكريين أن يفهموه جيدا ، وهو السبيل الذى أوضحه نابليون لمن يريد أن يكون له القدح المعلى فى ميدان الحرب ، اذ قال : اقرأ وأعد قراءة الحملات السابقة .

والعبقرية الحربية موهبة من السماء ولكن القيادة تتطلب العلم والدراسة والتمرين ، فالقادة يولدون ويصنعون وكثيرون هم الذين واتتهم العبقرية العسكرية ولم يحسنوا شيئا لأن الفرصة لم تكن مواتية والطريق لم يكن واضحا ، فلابد من علم وتدريب لكى يحصل القائد على المعلومات والامكانيات التى تكفل له البروز فى ميدان القتال .

وقد امتاز كل قائد عظيم بصفات ومؤهلات ساعدته على النجاح وجعلت له مكانا فى التاريخ ، ولكى نعرف الصفات اللازمة للقيادة لابد من مراجعة تراجم القادة العظام .

وليس من الضرورى فى حساب العبقرية العسكرية أن نضع فى سجل البطولة أسماء للمنتصرين وحدهم فهناك قادة عباقرة خسروا المعارك ، ولكن شهد التاريخ لهم بالبطولة الخارقة والمقدرة العظيمة .. ورب هزيمة خير من انتصار .

وعلى سبيل المثال نذكر أن كلا من نابليون وهانيبال قد منى بالهزيمة وأحيق به الخسران ، وخاصة فى آخر معركة له وآخر عهده بالحرب ، فهل يمكن القول بأن هازميهما ولنجتون وسيبيو أحسن منهما ؟

وهل كان القادة المنتصرون فى الحرب الأهلية الأمريكية افضل من الجنرال روبرت لى ، وهو الذى يعتبر أعظم عبقرية عسكرية انجبتها الحرب الأهلية .

فى هذا وغيره من نواحى موضوع العبقرية العسكرية كتب كثيرون من المؤرخين ورجال السيف والقلم ، القدامى والمعاصرين ، وهذه هى بعض الآراء الجديرة بالتسجيل .

رأى ليدل هارت

لقد وضع نابليون سبعة أسماء فى قائمته المنطوية على كبار القادة فاذا هم :

(١) الاسكندر .
(٢) هانيبال .
(٣) يوليوس قيصر .
(٤) جستاف أدولف .
(٥) تورين .
(٦) أوجين .
(٧) فردريك الاكبر .

وانى ارى ان قائمة نابليون قد اهملت الكثيرين ، ومنهم (ابامينونداس) الذى سار فردريك على نهجه بعد الفى عام ، وايضا « سيبيو » .. ثم « بلزاريوس » و « نارسيس » .

وفى العصور الوسطى كانت جيوش « جنكيزخان » تطوى بساط آسيا ثم أوروبا وتمحق كل جيش فى طريقها من الباسفيك الى البلطيق .

ولم يذكر نابليون أيضا « جنزالو قرطبة » أول من لقب « القائد العظيم » وقيل عنه ايضا « أول قائد عصرى » .

واذا ما ذكر « تورين » فيجب أن يذكر أيضا « كونديه » وبالمثل « كروموبل » القائد البريطاني الذي أحرز انتصارات هائلة وترك ذكرا داويا في التاريخ .

وليس من العدالة ان يذكر نابليون في قائمته « أوجين » ويهمل زميله « مارلبورو » قاهر فرنسا في عصر الملك الشمس .

واخيرا فان نابليون لم يذكر « نابليون » في قائمته ولم يذكر أيضا « ولنجتون » ! ؟

قادة الحرب الأهلية

وفي الحرب الأهلية الأمريكية لمعت نجوم « جاكسون » « شرمان » احد الجنرالات الأفذاذ الموهوبين في الاستراتيجي ، وكذلك « بدفورد » الذي أوتي من العبقرية ما يجعله خير قائد في تلك الحرب من الجانبين ، فهو أول مبتكر لخطط ضرب خطوط مواصلات العدو والتسلل الى المؤخرة واجراء الحرب الخاطفة .

قادة الحروب الحديثة

وجاءت الحرب السبعينية بعبقرية لا غبار عليها ، فالقائد مولتكه استطاع أن يحرز انتصارات خلابة ضد النمسا (١٨٦٩) وضد فرنسا (١٨٧٠) وهي انتصارات فاصلة تركت أثرا عميقا في أوروبا .

ولم يستطع أحد قادة الحرب العالمية الأولى ان يقفز الى صف الأولوية بين القادة العظام ، ولكن يمكن القول بأن كلا من لدوندورف وفوش قد صنع شيئا اما القائد الذي يمكن اعتباره عبقرية فكانت ساحته بعيدة عن أوروبا ، وهو الجنرال لورنس .

صفات العبقرية

وبعد .. فهل نستطيع أن نستدل على الصفات والمزايا التي اجتمعت في هؤلاء حتى نعلم أسرار عبقريتهم .

لقد كان جوستاف من القلائل الذين ابتكروا بأنفسهم خططا جديدة وكان نسيج وحده *.

ويمكن القول بأن ابامينونداس ، وسيبيو ، وجونزالو القرطبى ، وكرمويل كانوا من الأفذاذ ، ولكنهم لم يوضعوا فى قائمة نابليون هذه القصيرة .

والى الاسكندر يرجع الفضل فى خططه أما تنظيمات جيشه وتسليحه فيرجع الفضل فيها لوالده فيليب ملك مقدونيا ، كما يدين بونابرت بأفضال القادة الذين نظموا الجيش الفرنسى قبل الثورة الفرنسية .

ولقد ظهر كثيرون من القادة العظام ، منهم من نبغ فى التكتيك ومنهم من برع فى الاستراتيجية ، ولكن هناك صفات طبيعية تعتبر روح القيادة ــ وخاصة فى العصر الحديث المليء بالمفاجآت ــ هذه الصفة هى التى تحدث عنها فولتير واعتبرها مفتاح شخصية « مالبورو » وهى : الشجاعة الهادئة فى وسط الأخطار الماحقة والهدوء الروحى فى غمار الويل ، والتى يقول عنها الانجليز « راس باردة » .

وهناك صفة أخرى يطلق عليها الفرنسيون « روح الادراك » وهى الشعور بما يمكن وما لا يمكن وهى مرادفة لكلمة « كومون سنس » أو « المعقول » .

وعندما تجتمع الشجاعة الهادئة مع سرعة الادراك فى أعماق قائد منقض .. تكون العبقرية العسكرية .

رأى ويفل

عندما كنت أحاول أن أحدد لنفسى الصفات الجوهرية للقيادة العليا ، رددت البصر الى التاريخ لأعرف كيف كان تقدير المؤهلات فى الماضى وقرأت عددا من الموضوعات التى كتبها الثقاة عن السجايا

العسكرية والفضائل الأخرى التى تعتبر ضرورية للقائد ، وجدت صورة وصفية واحدة بلغت الغاية ، هذه الصورة وصفها رجل حكيم ، هو سقراط ، وقد جاء فيها :

« يجب على القائد ان يوفر لجنده المؤن ، وما عداها من أنواع العتاد الذى يحتاجونه للحرب ، كما يجب أن يكون واسع التصوين لوضع الخطط مع قدرة عملية ونشاط للقيام بتنفيذها ، يجب أن يكون قوى الملاحظة ذكيا ، شفوقا وقاسيا صريحا ومجاملا ، فيه دهاء اللص ويقظة الحارس ، مسرفا وبخيلا ، كريم العفو وقاسيا لا تلين قناته ، كل هذه الصفات وغيرها سواء أكانت طبيعية أم مكتسبة يجب أن تتوفر فى القائد كما يجب ــ كشىء عادى طبيعى ــ ان يلم الماما تاما بصناعته فلا يمكن ان يكون الفوغاء غير النظاميين جيشا ، كما لا يمكن ان تسمى مجموعة ركام مواد البناء منزلا مشيدا » .

ولكن هذا التعريف لم يوجه الاهتمام لأولى الصفات التى يجب أن يتصف بها القائد ، وهى « **المتانة** » : المقدرة على تحمل صدمات الحرب .

وقد كان رجال المدفعية يختبرون متانة المدافع ، بالقاء المدفع من ارتفاع مائة قدم فاذا استمر صالحا للعمل تقرر قبوله ، ذلك لان المدافع الجبلية عرضة للسقوط من قمم التلال ولهذا يجب ان تكون صالحة بعد مثل هذا الحادث ، كذلك كانت الأسلحة الآلية الصغيرة تطمر فى الأوحال لمدة ثمانى وأربعين ساعة قبل أن تختبر لتقدير درجة كفايتها للنيران السريعة .

وعقل القائد لا يطمر لمدة ٤٨ ساعة فقط بل أياما وأسابيع فى أوحال المعلومات غير الوثيقة ورمال العوامل المجهولة ، ويتلقى القائد الصدمات من تحركات مفاجئة للعدو أو حوادث غير متوقعة أو تبادل مخادع ، قلما يحدث مثلها للمدفع ، حين يقع من ارتفاع مائة قدم .

وعندما تقرأوا التاريخ الحربي ، لاحظوا الفشل الذى نتج عن الافتقار الى صفة ((الصلابة)) .

الصحة والشباب ..

القائد الجيد كالجواد الأصيل ، يستطيع العدو على اى أرض وبكل طريقـة ، والشجاعة البدنية ليست عاملا ضروريا فحسب ولكنها حيـوية ، ويجب أن يتصف القـائد بالشـجاعة الطبيعية والمعنوية . وهى أكبر هبة تمنحها الطبيعة لقائد .

ان القائد الشاب النابه أفضل من القائد الشيخ المحنك .

وهناك صفة اخرى هى التى تميز بين القـائد الجيد والقائد العادى وهى :

روح المخاطرة

وقد قال نابليون : لو خلا فن الحرب من المخاطرة لكان المجد فى متناول المواهب العادية . وكان نابليون لا يعين الا ((الضابط الشجاع)) فى مناصب القيادة ، فكان يسأل : هل هذا القائد موفق ؟ وهو يقصد ان يسأل : هل كان شجاعا ! .

ان القائد الذى يسمح للتعليمات والنظم الموضوعة فى كتب التعليم ان تحد من نشاطه هو قائد لا يصلح لأن يربح معركة .

التعليمات الجديدة

ان دراسات القائد يجب أن تستند الى ادراك عام Genral Knowledge ومعرفة بالشئون العـامة كما يجب أن تتناول استخدام القوات الجـوية والمدرعات والمدفعيـة والرادار ، يجب أن يتفهم القائد استعمال الغاز والدخان فى الهجوم والدفاع ، وان يعرف شيئا عن اللاسلكى يكفى لتمكينه من استخدامه فى المواصلات ، وان يلم بأشياء فى فن التمويه وموضـوع الدعاية ، وان يدرك تطورات استحكامات الميدان ، وان يكون على بينة من كل جديد من مطالب الحرب الحديثة .

القـائد وجنـوده

هناك قاعدتان لابد من تنفيذهما :

● القاعدة الأولى : احذر ان تتولى بنفسك أعمال معاونيك .

● القاعدة الثانية : احـذر ان تجعل اركانحربك يقفون بينك وبين الجنود .

ومن الأفضل أن يمضى القائد وقته مع ضباطه وجنوده .. من أن يقضى معظمه فى مكتبه .

يجب أن يعرف القائد مزايا قواده الأصاغر . من يستحق الثقة ومن يحتاج للتوجيه والمراقبة ، من يحتاج لاشارة خفيفة ومن يحتاج لأوامر مفصلة .

أما فيما يتعلق بصلة القائد بجنوده فلكل تفكيره الخاص ، فالضابط الفرنسي عندما يحدث رجاله يقول لهم «ياأولادى» ويحدثهم عن مجد فرنسا وتراثها القومى والضابط الانجليزى يخاطب رجاله بقوله « أيها الرجال » والروسى يقول « أيها الرفاق » والألمانى يصيح « أيها الزملاء الآريون » ! .

ومهما اختلفت الوسائل فهناك مسألة أساسية وهى :

ما الذى يدفع الجندى ليخاطر بحياته ، بكل شجاعة ؟

وما هو نصيب القائد فى تنمية البسالة فى الجندى ؟

ليس هناك كائن من كان يحب الموت ، فما الذى يدفع الجندى لمواجهة الموت

هل هو يأمل فى الغنيمة والمجد ، أم هو النظام والتقاليد ، أو التفانى فى المبدأ وحب الوطن ، أو الاخلاص لرجل ؟

اما المجد والغنم فلا يصادفان هـوى فى قلب الجندى الحديث ، والواقع أنه لا يوجد اليوم الكثير من المجد والغنيمة !

الحق أن الجندى لا يهرب لأنه يحارب فى سبيل قضية غيرعادلة ، ولا يهاجم لأن قضيته عادلة ، ولكنه يفر لأنه أضعف من خصمه وينتصر لأنه اقوى أو لأن « **قائده يشعره بانه اقوى من خصمه** » وكثيرا ما كان التفانى والاخلاص لرجل ملهما فى الماضى ؟ فهل لم يتغير الحال فى هذه الحرب الشاملة ؟

ان التقاليد والنظام هما الأصل الحقيقى للمسألة ، ومن واجبات القائد أن يرى العدل قائما ، فالجندى لا يعنى بقانون صارم طالما يطبق فى ظروف عادلة .. وقد كان القائد كراوفورد أثناء التقهقر نحو كورونايعمل بشدة فقال أحد جنوده : كان القائد اذا أمر بجلد جنديين ينقذ مئات من الموت ؟ !

المدفع والزبدة

وبجانب النظام والعدالة توجد أشياء أخرى فيها ترفيه عن الجندى : راحته الشخصية ، تعيينه (طعامه) المنظم . لبسه اللائق ، مسكنه الجيد ، علاجه ، سلامته .. نعم ، لابد من المدفع والزبدة .

ان هزيمة الجيش الروسى فى الحرب العالمية الأولى ترجع **لنقص فى المدفعية** أما هزيمة الجيش الألمانى فكان سببها النقص فى الزبدة !

ان القائد يكسب ثقة جنوده اذا كان يهتم بشئونهم ولا شك أن الجنود يحترمون القائد الكفء الذى يعنى بهم .

كانت زيارات الجنرال اللنبى لموقع جنوده فى فلسطين كالريح المنعشة ، فيتبادل التحية مع ضباطه ويفتش الجنود ومهماتهم وحاجياتهم مشيرا بعينه نحو ما يعجبه أو ما يضايقه وكان طول قامته ونشاط روحه وحدة نظره وقوة عباراته وحيوية اشارته .. ما جعله يطبع عقول جنوده بطابع شخصيته .

السلاح الأول فى المعركة

انى أتذكر عبارة قالها الجنرال أراودبيك بمدرسة المشاة الفرنسية وهى :

« الجندى هو السلاح الأول فى المعركة » .

عندما تدرسون التاريخ الحربى لا تقرأوا ملخصات فى الاستراتيجية أو فى مبادىء القتال .. « **طالعوا حياة القادة ومذكراتهم** واقرأوا أحداث التاريخ .

وليس من المهم أن تعرف أن نابليون قد كسب معركة عام ١٧٩٦ بالمهارة فى المناورة على خطوط داخلية أو ما يشبهها من العبارات المشهورة ، ولكن الأهم أن تكتشف **كيف ان قائدا مجهولا حديث السن بث روحا عالية فى جيش** يكاد يموت جوعا ، على وشك الثورة والبؤس والانحلال ، وجعل منه جيشا يقاتل . وكيف أمده بالنشاط وبقوة الاندفاع ، وكيف ساد وقاد قادة أكبر منه عمرا أو اكثر تجربة .. فاذا عرفت السر ، تكون قد أفدت من التاريخ العسكرى وقيادة الجنود .

ان نابليون لم يحصل على مكانته لأنه درس قواعد الاستراتيجية ، بل لأنه درس دراسة عميقة « الطبيعة البشرية فى الحرب » .

والخلاصة أن العلاقة بين القائد وجنوده ، كثيرة الشبه بالفارس وجواده ، فالجواد يجب ان يراقب ويدرب بطريقة خاصة ، ويشجع أيضا .. الجواد . يعرف مكانة راكبه اذا شعر براحته الخاصة ، ويدرك أيضا اذا كان راكبه جسورا ، أو جبانا مترددا ، أو صاحب عزيمة .

وقد يوجد القائد الذى يجعل رؤساءه يقدرونه كقائد جيد ، ولكنه لن يستطيع ذلك مع جنوده الااذا برهن لجميع أفراد وحدته انه متصف بجميع سجايا القيادة .

واخير ، فكبار القادة يتشابهون فى صفة أساسية هى الروح العالية التى لا تقهر ، وقال احدهم : لا يحدث أن فقد قائد معركة الا عندما فقد هو نفسه الأمل فى كسبها .

وقد نصب الرومان تمثالا للقائد الذى انقذهم فى ساعة من اظلم ساعات روما وكتبوا على التمثال :

« انه لم يفقد الثقة فى الجمهورية » .

راى مونتجمرى

ان القيادة العسكرية من الموضوعات المحببة الى نفسى ، وقد كنت خلال الحرب احاول أن أضع أفكارى فى بوتقة التجارب . فوجدت أنه لكى تقود جيشا يجب عليك باديء ذى بدء أن تكون واسع العلم بالطبيعة البشرية لأن هذه هى المادة الأساسية التى ينبغى على كل قائد أن يسبر غورها ويصل الى أعماقها .

فاذا أنت أهملت العامل الانسانى فلن تكون قائدا ناجحا .

ان الصلة الشخصية بين القائد وجنوده كانت ولا تزال احد العوامل الرئيسية المؤدية الى النصر ، فاذا توفر للقائد الثقة الكاملة بجنوده وتقديرهم ، فليس هناك شيء لا يستطيع أن يناله ، **أما اذا اضاع القائد ثقة جنوده به فقد كتب على نفسه الخسران المبين .**

ولنبحث الآن الأسس التى تقوم عليها مقدرة فرد على قيادة الآخرين . وقبل ذلك ينبغى أن نعرف ما المقصود بالقيادة

انتى أقدم لكم تعريف القيادة بأنها ، **التصميم على العمل بالروح التى** توحى بثقة الآخرين .. وأنا أرى ان قياس مقدرة الشخص على القيادة يعرف بعاملين :

الأول : التصمم على مواجهة الرجال والحوادث التى تحيط به . والقدرة على تجميع نفسه ورجاله بأقصى قواهم الى غرض محدد . دون أن يحوله شيء عن هدفه .

الثانى : قوة خلقه وشخصيته التى تجعل رجاله يضعون ثقتهم فيه ، ومقدرته على قيادتهم للنصر .

وقد كان هناك كثيرون ذوى قدرة عظيمة على كسب ثقة رجالهم . وانى أختار منهم ثلاثة تاريخيين ، لنرى كيف استطاع هؤلاء أن يكونوا قادة ، وكيف قادوا رجالهم ، ولماذا نجحو أو اخفقوا !

موسى

وسأبدأ « بموسى » .

كان موسى قد فات سن الشباب عندما دعى لسوق بنى اسرائيل من أرض مصر فكانت مهمته ضخمة ، اذ كانوا مستضعفين فى مصر مدى اربعة قرون ! وعلى الرغم من أن الجو لم يكن مناسبا لهم الا أنهم فضلوا الاقامة حيث العيش الرغيد فى الدلتا ، ولم يقدموا على ترك هذه الأرض الطيبة لأن الصحراء كانت تحيط بهم .. ولهذا كانت مهمة موسى جد عسيرة فى حمل القوم على مبارحة مصر الى الصحراء الجدباء حيث يعيشون فى كنف المشقة والعناء ، الأمر الذى يدل على انه كان قائدا فذا ورائدا مطاعا .

وليس هناك شك ان موسى كان قديرا ، فقد ساق بنى اسرائيل من مصر وهم فى حالة ميئوس منها من ناحية الصلاحية للحرب . اذ كانوا أذلاء متذمرين فشرع فى تهذيبهم وتدريبهم .

ويبدو أن موسى قضى ببقاء بنى اسرائيل اربعين عاما فى الصحراء . قاصدا بهذا أن يمرنهم على احتمال المشقة ، وفى هذه السنوات الاربعين استطاع أن يؤهلهم للقتال ، حتى إذا وصلوا الى مرتبة عالية كان لهم أن يغزوا أرضا جديدة ، ويمتعوا بخيراتها .

وكان موسى قاضيا حكيما ، فيما كان يصح وما لا يصح من افعال اسرائيل وكان لديه رقم قياسى فى النجاح العسكرى ، ونظرة عميقة فى الطبيعة البشرية تؤهله لكسب ثقة جنوده وخاصة بأن

يحرق لهم النصر وفى الحقيقة أن خير وسيلة تجعل الجنود تؤمن بقائدها هى : ((**النصر**)) .

كرمويل :

أما القائد الثانى الذى اخترته فهو « كرمويل » .

وهو الآخر دخل معمعان الحرب قائدا بعد ان جاوز الاربعين من عمره ، وبدأ قيادة رجاله فى الحرب الأهلية على رأس ستين جنديا ، وبهذه القوة حارب فى « ادجهل » وعلى الرغم من تفوق البرلمانيين فى الرجال والبنادق فقد رأى كرمويل أن هذا التفوق لا يكون مجديا بغير عنصر أصيل : ((**القائد**)) .

وقد شرع كرمويل فى اعداد رجاله على هدى مبادئه الخاصة ، وهى روح القتال العالية ، الضبط والربط ، والتدريب التكتيكى الكبير .. وأيضا ثقة الجنود التامة فى قائدهم .. وقد عمل كرمويل بروح جبارة ــ تمثل بها رجاله ــ وكانت له ثقة عجيبة بقدرته على الفوز .

لقد وضع كرمويل برنامجا لاعداد رجاله كما وضع المبادىء اللازمة للفوز فى الحرب وعنى بالروح المعنوية ، روح القتال والتصميم على النصر . وبهذه الروح قاد كرمويل فرسانه الستين وهو كابتن فى أكتوبر ١٦٤٢ فى معركة « ادجهل » وبعد عام أصبح لفتنانت جنرال نائبا للقائد العام لجيش ورشستر جيش الولايات الشرقية ــ وكان يتولى قيادة الفرسان ، ثم أصبح القائد غير منازع لقوات البرلمان .

وقد عرف عن كرمويل انه شديد الحساسية عصبى المزاج ، يحب الضبط والربط الشديد والتدريب العنيف وكان له ايمان عميق بصحة اهدافه ، وثقة بمقدرته على النصر . وقد كان النصر حليفه دائما ، فلم يعرف الهزيمة قط .

وعندما يكون القائد على أهداف حقة ، وعندما يعطى جنـوده النصر فلا شيء يستطيع أن يعترض طريقه .

ومن الطريف أن نجاح كرمويل فى ميدان الحرب لم يلق نظيره فى منصة الحكم عندما دانت له بريطانيا فقد جرب أربعـة انواع من الحكومات ، وهو الحاكم المطلق ، فلم تلق احداها نجاحا ، فاصبح دكتاتورا أكثر من الملك الذى أعدم لدكتاتوريته ! ولهذا فقد انقضى نظام كرمويل بموته وعادت بريطانيا الى الملكية والبرلمان .

نابليـون :

أما القائد الثالث الذى أريد أن أتحدث عنه فهو نابليون .

قائد تسيطر عليه الأنانية وتوجهه المطامع الشخصية !

وعلى عكس القائدين السابقين كان نابليون جنديا بحكم المهنة فتدرب فى فاتحة شبابه على الجندية وكان مرموقا فى صباه تبدو عليه علامات القيـادة ، وكان يريد أن يحـرك الأولاد عند اللعب ويقودهم ، وقد وصل سريعا فى سـن مبكرة الى أعلى درجات القيـادة ، فقاد جيشـا كاملا الى ايطاليا وهو فى السادسة والعشرين من عمره .. جيشا أقل عددا وعتادا مما يملك خصومه ، ولم يمض عام حتى احرز نصرا لامعا فى شمال ايطاليا وأتم اخضاع اعدائه .

لقد بدأ نابليون عند توليه قيادة جيشه يدمج ضباطه وجنوده فى « جوه » ويسيطر عليه ويجتذب كامل ثقتهم وايمانهم به .. انه ثقة بونابرت بنفسه كانت خميرة الثقة العالية التى أولاها اياه جنـوده .

وبجانب هذه الثقة العظمى بالنفس كان نابليون يغوص بأفكاره فى شئون الحرب فيخرج بالمبـادىء التى ينبغى توفرها لاحراز

النصر .. كانت لديه قدرة خارقة على تبسيط المشكلات وادراك سريع للنقط الهامة ، فاذا تم له الوقوف على عناصر الموضوع ، واذا ملأ جنوده بالثقة فيه ، واذا جعل الروح المعنوية عالية .. فانه لم يكن يعرف الاخفاق .. ولا يعرف المستحيل !

لقد كان نابليون سياسيا بمثل ما كان جنديا ، وكان له ولع بالدبلوماسية ومرونة ، ولكنه لم يستطع كبح شهواته فى الغزو وميله الى السيطرة فطغت هذه على مقدراته الحربية وانتهت به الى مأساة بل الى كارثة ، فى موسكو .

والآن ترى ماذا اتفق عليه هؤلاء الثلاثة الكبار : موسى وكرمويل ونابليون ؟ ان الميزة الكبرى لثلاثتهم هى : **ايمان الجنود بالقائد ، وثقة القائد بنفسه وأهدافه** . ترى من أين لقائد هذه الثقة العظمى والمقدرة على تحقيق هدفه فى الحرب ؟ .

أظن أن ذلك راجع لمقدرته على تبسيط الموقف ودراسة لوازمه ، وكيفية تحقيق هذه اللوازم المؤدية الى النصر .

أى أن لديه عقلا يعرف به حاجته ، وعزما يحقق به هذه الحاجة .

اذن ، فالقدرة على تقدير الموقف وتبسيط مشكلاته عامل أساسى فى فن القيادة .

وكل من هؤلاء القادة الثلاثة كان على خبرة باذكاء روح القتال العالية فى جنوده وبعث حماستهم وتركيز أفكارهم فى النصر .. وهى مقدرة ترجع الى فهم العامل البشرى وتأتى من **الدراسة** المتوالية والاتصال الوثيق بالجنود .

فالقائد المحنك حقا هو الذى يسبر غور جنوده ويكون على علم بالشعور والعواطف التى تؤثر فى نفوسهم .. كما كان كل منهم يعرف عواطف جنوده وأفكارهم ومطالبهم .

ان القائد الذى لا يهتم بالناحية الانسانية هو قائد فاشل .

ولا يمكن لرجل ان يقود آخرين دون ان يتفهم مشاعرهم وعواطفهم ونفسياتهم ولا يستطيع قائد مهما كان عظيم الشأن ان يثبت فى قيادته ما لم يحرز النصر ، **اذ ليس** ثمة خير فى قائد لا ينتصر ، اذ سرعان ما يتقلص نفوذه وتهبط اسهمه بين جنوده ، وفى هذا يقول ونستون تشرشل فى دراساته الرائعة للقائد الأشهر مالبورو .

(ان نجاح القائد لا يتأتى من القواعد او النماذج السابقة انما يأتى من التجديد الذى توجبه الحقائق الجلية فى الموقف ومن طريقة ادارة القوات فى القتال ، فكل عملية كبرى فى الحرب نسيج وحدها ، والمطلوب هو تقدير صحيح لكل موقف . . ان الخطأ المشين حقا هو ان يجرى القائد فى معركة على وتيرة قائد آخر فى معركة سابقة ، ويتمثل بما فعله فى زمن مضى وظروف لا رجعة لها) .

وهذا موقف يطرأ على القائد يجب أن يعتبره شيئا جديدا يحتاج الى خطط جديدة ولا يجدى فيه التقليد ، ولو كان تقليدا عن أشهر القادة بلا استثناء .

ويكفى ان ننظر الى قائمة الحرب العالمية الثانية والثقة العمياء التى وضعت فى خط ماجينو ـ وكانت النتيجة اخفاقا تاما ـ ذلك لأن المسئولين وقفوا عند نقطة معينة بينما فن الحرب يجرى ويقفز . قلم تعد التحصينات تصلح الا للماضى الذى لا يعود . . أما القوات الميكانيكية والتقدم الصناعى فلا يستطيع ماجينو ان يقف فى سبيلها .

لكى يكسب القائد معركة لابد له من وسائل وصفات ارى فى مقدمتها :

● تفهم اصول الحرب .

● الوقوف على عوامل النصر الحربى .

● الشجاعة والصلابة .

● التقدير السليم .

القائد الجيد :

١ ـ هو الذى يعرف أولا : ماذا يريد .. يجب ان يرى غرضه واضحا وأن يحشد لغرضه كل قواه .

٢ ـ وهو الذى يجعل رجاله يعيشون في جو المعركة فاهمين لما يدور فيها متنبهين لكل ما هو مطلوب منهم .

٣ ـ وهو الذى يتيح لمعاونيه ورجاله معرفة المعلومات بقدر المستطاع أولا بأول .

٤ ـ وهو الذى يرفض المركزية ويجعل رجاله يعملون في التفصيلات ولا يدع لنفسه غير التوجيهات العامة .

٥ ـ وهو الذى يحسن اختيار معاونيه ويجيد توجيههم بمجهود يسير .

٦ ـ وهو الذى يبقى فى خط النار حتى يتم النصر .

٧ ـ وهو الذى يتمعن فى فهم أخلاق جنوده والشعور والعواطف التى تؤثر فيهم .

٨ ـ وهو الذى يعنى بالروح المعنوية ، والضبط والربط ، والاحترام الشخصى وثقة الجنود به وبأسلحتهم وهدفهم .

٩ ـ وهو الذى يقود جنوده بروح قائد الفريق فيعملون متآخين لاحراز النصر المبين .

١٠ ـ وهو الذى يستطيع وضع رجاله كل فيما يليق له اى بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب .

واخيرا يقول مونتجمرى كلمة حكيمة للقادة « الذين يفخرون بشهاداتهم » :

« لا يوجد كتاب ولا نصوص موضوعة يستطيع بها القائد ان يحرز ثقة جنوده وتقديرهم ولكن المرجع الأساسى هو : شخصية القائد » .

يجب أن يعرفوه جيدا ويقدروه قدره ويروه منتصرا ! ..

فان الجنود .. كل الجنود ، يحبون السير وراء قائد منتصر .

مشاهير القادة

فى شتى العصور

ومتعدد الأقطار

تحتمس الثالث

"نابليون الشرق القديم"

لقد عرفت مصر أصول القيادة قبل أن تشرق شمس الحضارة والمدنية على غيرها من الدول والممالك ، وكان لها عديد من القادة العظام في جميع الأزمان ، ولم يكن الانتصار في الحرب وحده هو مبعث الفخر ومرجع الشهرة وانما كان لقادة مصر الأقدمين فضل الابتكار والسبق في تنظيم الجيوش وتنسيق الأسلحة واعداد الرجال وتدريب القوات ووضع الخطط واحراز النصر .. فضلا عما احتوته الآثار المصرية القديمة من دلائل التفوق في فهم مبادىء الحرب ووضع تقاليد الجندية التي عرفت فيما بعد وعزيت للآخرين .

ان من يدرس تاريخ مصر القديمة يقف على امجاد عظيمة في جميع شئون الحرب مما يستوجب عناية المسئولين واهتمام العسكريين ، كما انه يقف أمام حشد من القادة الذين كانت لهم مزايا وصفات باهرة ، وغزوات ومعارك رائعة ، وتنظيمات وخطط بارعة .

ولقد حدثنى أستاذ الجيل فى تاريخ « مصر القديمة » المرحوم الدكتور سليم حسن عن هؤلاء القادة وفنونهم ومعاركهم وآثارهم مما شوقنى الى المزيد من المعرفة والبحث والدراسة والمقارنة ، فلما أردت أن أتخير قائدا مثاليا اضعه كنموذج للقائد المصرى ، وجدت أكثر من واحد ، ثم وافقنى على اختيار تحتمس الثالث ، الذى يلقبه مؤرخو الغرب بحق « نابليون الشرق » .

بطل الاستقلال :

ومما يذكر بالتمجيد والفخار – وخاصة بالنسبة للظروف التاريخية التى تمر بها مصر الآن – أن تحتمس الثالث هو الذى اتم العمل العظيم الذى تحررت به مصر من نير الاستعمار ، فاذا كان أحمس الأول قد أجلى الهكسوس عن البلاد وأسس أول امبراطورية مصرية .. فان تحتمس الثالث هو الذى مد سلطانها وثبت دعائمها وحررها من التهديد الأجنبى وجعل منها أعظم امبراطورية فى زمانه تمتد من أعالى دجلة والفرات شمالا الى الشلال الرابع جنوبا .

لقد ناءت مصر بأعباء الاستعمار الهكسوسى وتلظت بناره ، وأخذ شعبها الأبى يكافح ويناضل للتخلص من الاحتلال الاجنبى حتى استطاع أحمس الأول أن يدهم الهكسوس ويذيقهم كأس الهزيمة ويدفع بهم بعيدا عن حياض الوطن ولكن بقى شبح الغزو قائما ومصدر الخطر باقيا حتى ولى الأمر تحتمس الثالث ، وكان – كقائد موهوب – يعلم أن درء الخطر انما يكون بالقضاء على مصدره ، وأن الدفاع عن الوطن لايكون عند الحدود ، بل خارجا عنها . ولهذا حرك قواته المدربة المنظمة الى حرب لاهوادة فيها ، واستخدم فنه الحربى وخبرة قواده وبسالة قواته فى ضرب العدو والاجهاز عليه وتحرير الوطن من ربقة الخوف والتهديد ، فلما تم له ذلك توطدت أركان الامبراطورية المصرية وعز شأنها .

قائد وجيش :

لقد حكم الملك تحتمس الثالث ٥٤ سنة من سنة ١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م وقد بدأت هذه الفترة بحكم الملكة حتشبسوت الفعلى طيلة احدى وعشرين سنة خالية من الحروب والمكاره ، حافلة بالرخاء والعمران ، فلما ماتت نهض تحتمس ـ بعد انتظار طويل ـ يفرغ ما اختزنه من دراسة وخطط وأفكار ، وألفى أمامه بلادا عامرة زاهرة وجيشا عرمرما مدربا ، وعدوا يتربص بها الدوائر ويشعل نار الفتنة والحقد على حدود البلاد . فلم تمض أسابيع على تولية العرش حتى قاد ذلك الجيش الكبير الى ساحات القتال في سلسلة من الحملات لتأمين حـدود الامبراطورية المصرية وتخليصها من شبح التهديد والخطر .

وكان الهكسوس ـ على اثر طردهم من مصر ـ يقيمون في الأقطار الآسيوية ، يؤلبون الأجانب ويتحينون الفرصة للعودة الى غزوة جديدة ، فأعلنت سوريا العصيان وتجمع الأعداء في حلف كبير بقيادة ملك قادش (١٠٠ ميل شـمال دمشق) فلم تـكن مندوحة من أن ينهض فرعون مصر لتأديب العصاة ودفـع ذلك الخطر .. وبدأت سلسلة من المعارك الكبرى لتـأمين حدود مصر وتثبيت دعائم امبراطوريتها وصيانة استقلالها !

الى الحرب :

وضع تحتمس خطته لغزو سوريا والقضاء على أعـدائه في آسيا ، ومن حسن الحظ أن هذه الخطط والمعارك قد سجلت بأغلب تفصيلاتها وبقيت الى يومنا هذا شاهدة بمجـد الفراعنـة ورسوخ قدمهم في الفن الحربى ، وقد جرت العـادة عنـدهم بتدوين « يوميات القتال » فبقيت حتى اليوم خالدة الأثر ، كتلك التسجيلات الرائعة التى ازدانت بها جدران معابد الـكرنك وهى توضح سير حملة تحتمس ، وتجعل من « مجدو » موقعة كبرى

من وقائع التاريخ الفاصلة لما دار فيها من ضروب القتال ، وما انتهت اليه من عظيم النتائج .

وهذه الحروب تدل على بعد نظر فى « الاستراتيجية » التى وضعت على أساس أن الدفاع يجب أن يكون بعيدا عن الفرض الى جانب الترتيبات الادارية التى جعلت غزو الأقاليم الشمالية ممكنا ، فاستطاع الفرعون أن يمضى الى قهر خصومه وتأمين امبراطوريته ، وتحرير شعبه من خطر التهديد .

بدأت الحملة من قاعدة « القنطرة » — وكانت تسمى فى القديم « سيلة » — يوم ١٦ أبريل ١٤٧٩ ق.م فتحركت القوات عبر الصحراء الشرقية الى فلسطين ، فوصلت « غزة » بعد مسيرة عشرة أيام قطعت فيها مائة وخمسة وعشرين ميلا ، اى بنسبة اثنى عشر ميلا ونصف ميل فى اليوم ، وهذا رقم يستلفت النظر ، وخاصة فى بقاع صحراوية ، ولقوات اغلبها مشاة .. ومع هذا فقد وصل الجيش الى غزة فى المساء ولم يمكث بها بل بارحها فى الصباح الى « يمـا » قاطعا ثمانين ميلا اخرى حيث بدات الترتيبات والتنظيمات لدخول المعركة .

مجلس الحرب :

وفى « يما » استقر المقام — كما قدمنا — وعسكرت القوات استعدادا للمعركة وللمرة الأولى فى التاريخ عقد تحتمس الثالث أول مجلس حربى لاستشارة قواده فى وضع تفاصيل الخطة ، وقد وجد « محضر الاجتماع » منقوشا على الآثار القديمة ، وهذا بعض ماجاء فيه :

(ان ذلك العدو الخاسىء ، صاحب « قادش » قد جاء بجيشه ونصب خيامه فيها ، وهو يقيم بها فى تلك الآونة ، وقد ضم اليه كل أفراد الأقاليم الذين كانوا يدينون بخضوعهم لمصر حتى نهر الفرات ، ومعه السوريون وقوم قودة بخيلهم وجنودهم وعشيرتهم ،

وانه يقول حسب ماوصل الى مسامعنا « سأقف هنا لمحاربة جلالته فى بلدة مجدو » فحدثونى مايدور بخلدكم فى هذا الطلب ، فأجابوا جلالته قائلين : « كيف يتسنى للمرء أن يسير فى هذا المضيق ، وقد وصلتنا الأخبار بأن العدو على تمام الاستعداد هناك فى خارج المدينة . وأن عددهم هائل . وهل سيكون السير مستطاعا الا اذا سار الجواد خلف الجواد ، والجندى خلف الجندى وهل ستكون مقدمة الجيش بهذه الطريقة فى ساحات القتال فى حين أن المؤخرة تكون لاتزال واقفة فى عرونة عاجزة عن محاربة العدو

كما أنه يوجد طريقان أخريان ، واحدة منهما تؤدى الى « تاعناخ » والأخرى تتجه شمال « زفتى » مؤدية الى شمال « مجدو » وبذلك لاتضطر الى سلوك هذا المسلك الوعر !.

فأجاب الملك قائلا :

« اننى مادمت حيا ومادام الاله رع يحبنى ومادام والدى آمون يرعانى ، وما دام نفس الحياة ينعشنى بالحياة والقوة فلن أسلك الا هذه الطريق المؤدية الى عرونة ! » .

لقد اختار تحتمس الطريق الوعر .. أقسى الطرق الثلاثة ، على غير ما يتوقع العدو ، وهنا يبرز مبدأ « **المفاجأة** » فى خططه .

ثم أصدر منشورا « أمر يومى » أنه استقر رأيه على قيادة جيشه بنفسه وأنه سيكون على راس جيشه فى المقدمة .

وهنا يبرز المثل الأعلى الذى يقدمه القائد لجنوده بأن يشاركهم أعباء القتال وأن يواجه معهم الأخطار .

وصف المعركة :

عندما اخذ القائد المبتكر يعمل فكره فى تقدير الموقف وجد ثلاثة طرق مفتوحة امامه ، وقدر أن العدو يرتقب تقدمه على أحد طريقين دون الثالث ، وهو أصعبها واشدها وعورة ، فاختار هو

ذلك الطريق الوعر الذى لايتوقعه العدو ، عرونة الى « مجدو » بقصد المفاجأة . وقد تم له عبور المر الضيق وما صادفه من مرتفعات وعقبات حتى اذا انتهى منه اخذ ينشر قـواته ويجرى ترتيبات الوقاية والأمن والملاحظـة !.. بينما كان العدو يرقب الطرق الأخرى ويحشد قواته امامها .. ولهـذا كانت الصدمة الأولى قوية أطاحت بمعنويات العدو وماديات فى وادى « قنا » حتى لم تستطع تلك القوات المغلوبة على أمرها أن تثبت أو تقاوم أو تأخذ فى هجوم مضاد ، وذلك بسبب الضربات المدمرة التى حلت بها ولما انتشر فى صفوف المهزومين من فزع واضطراب .

وكان تحتمس قد نظم قواته للمعركة بأن جعل للجيش قلبا وجناحين . وأرسل أمـام الجيش مقـدمة دفع منها وحدات استكشافية ، كأحدث تعاليم الحرب الحديثة وقد حقق فى هذه المعركة ثلاثة مبادىء هامة : المفاجأة ، والوقاية ، والقتال الهجومى .

وقد وجد الأثريون أثر هذه المعركة التاريخية . وقد جاء فيه :

كان الجناح الأيسر مرتكزا على ربوة جنوب « قنا » والجناح الأيمن معسكرا فى شمال غرب « مجدو » ، وكان جلالته فى وسطهما يحميه الاله آمون فى حومة الوغى . وكانت قوة بأس الاله « ست » ــ اله الحرب ــ تدب فى أعضائه . ففاز فوزا مبينا وهو على راس جيشه ، وقد راوا جلالته والنصر حليفه ولذلك ولوا الأدبار نحو « مجدو » بوجوه يغمرها الذعر والهلع تاركين خيلهم وعرباتهم .. وسقط منهم على الأرض أكداس من القتلى ثم دخلوا « مجدو » .. الخ .

وانتقل ميدان المعركة الى « مجدو » التى حاصرها تحتمس الثالث سبعة اشهر استسلمت بعدها صاغرة واقسم الأمراء على الا يعودوا الى العصيان مرة اخرى .

تحتمس « صياد الآسيويين » :

ومن هذه المعركة تتضح شخصية القائد ، فهو عند وضع خطته قرر أن يفاجيء العدو ، فاختار أصعب طريق ومثله فعل عظماء القادة فيما بعد ، فهانيبال عبر الألب ، ونابليون ، وأيضا مونتجمرى اختار أقوى النقط فى خط دفاع المحور عند العلمين وركز هجومه عليها .. كما أن خطة تحتمس انطوت على المغامرة ، التى اعتبرها نابليون من خصائص الجندى الكبير فقال « لو خلا فن الحرب من المخاطرة ، لأصبح المجد فى متناول الأشخاص العاديين » .

كذلك تتضح شخصية تحتمس القائد من تصرفه مع الأعداء المنهزمين ، فهو لم يأمر بقتلهم أو التنكيل بهم ، بل اعتبر المعركة مباراة ، تقتضى الرحمة بالمهزوم !. وكان بذلك عنوانا لشعبه الذى وصفه الأثرى Wigal بأنه أعظم شعوب العالم القديمة رحمة وانسانية .

وقد كان تحتمس رجل حرب وسياسة ، شأن عظماء القادة ، نفكر فى مستقبل أكثر أمنا واستقرارا ، بأن نصب أمراء جددا على المقاطعات المغزوة ، ثم اخذ أولاد هؤلاء الأمراء ليتعلموا فى مصر ضمانا لاستقامة آبائهم من ناحية ورغبة فى اشباعهم بحب مصر وتنشئتهم على الاخلاص لها عندما يصبحون حكاما فى المستقبل .

قوات البر والبحر :

ولم تكن الحروب التى خاضها تحتمس الثالث برية فحسب بل اشتملت حملاته على قوات بحرية أيضا ، وكان أول قائد فى العالم يضع خطة مشتركة تتعاون فيها قوات البر والبحر بتوقيت دقيق وتعاون متبادل ، فاستخدم اسطولا كبيرا للنزول فى ساحل فينيقيا متخذا من ذلك الساحل قاعدة تبدأ منها عملياته

فى بلاد النهرين .. وهى خطة لم يسبقه اليها احد ، وقال عنها أحد المؤرخين المحدثين ان هذه الخطة لو استخدمت فى حملة فلسطين لاستطاع الانجليز دحر الأتراك فى العام الأول من تلك الحملة .

استاذ « اللنبى » و « مونتجمرى » :

ان معركة « مجدو » قد عادت الى الوجود مرة أخرى بعد اربعة آلاف وخمسمائة سنة ، وجرت على ذلك الطريق الذى سار عليه تحتمس الثالث . فان الجنرال اللنبى نسج على منواله حين كان يدفع الجيش التركى فى بقاع سوريا عام ١٩١٨ حيث هزمهم فى نفس المكان لما ألقى بخيالته فى ممر عرونة مستوحيا خطة تحتمس وتجربة مجدو الأولى فى فاتحة تاريخ الحرب .

كذلك اقتفى أثره المارشال مونتجمرى بعد هذه الآلاف من السنين عندما عبر نهر الرين على سفن جىء بها برا من الساحل على غرار ما فعله تحتمس الثالث فى حملته البرية البحرية على سوريا .. والفضل للمتقدم .

قائد عالمى :

ويقول العلامة أستاذ التاريخ المصرى القديم الدكتور سليم حسن فى كتابه المشهور « مصر القديمة » أن تحتمس الثالث كان رجل حرب بطبعه ، وقد دان العالم المتمدين لسطوته وعز سلطانه حتى صار قبل وفاته يسيطر على امبراطورية تمتد من أعالى نهر دجلة والفرات شمالا، حتى مدينة نباتا ــ عند الشلال الرابع ــ جنوبا ، ولم يخف على فطنة تحتمس أن يحدد لأخلافه من بعده حدود امبراطوريته ــ مثلما فعل « سونسرت الثالث » عندما وضع لوحة الحدود الشهيرة عند « سمنة » ..اذ انه عندما

عبر الفرات أقام لوحة تذكارية في الجهة الغربية من هذا النهر لتكون بمثابة آخر نقطة وصلت اليه فتوحه في الشمال أما في الجنوب فقد حدد فتوحه أيضا بلوحة من الجرانيت اقامها عند جبل « بركال » على مقربة من مدينة نباتا ، وهذه النقطة على ما يظهر آخر ماوصل اليه الفتح المصرى فى كل عصور التاريخ القديم . وقد حدثنا فيها هذا الفرعون عن قوة سلطانه وما أحرزه من انتصارات على الآسيويين دون أن يشير اشارة صريحة الى انتصاراته على بلاد « كوش » ، ولا عجب ، اذا كان تحتمس قد تغاضى قصدا عن ذكر انتصاراته على السودانيين تفاديا من جرح شعورهم أو التنديد بهم فى عقر دارهم . فهل ياترى « تغافل » تحتمس الثالث فى اللوحة التى اقامها عند الفرات عن ذكر انتصاراته على الآسيويين ؟ واذا كانت الأشياء تقاس بأسبابها فقد يكون ذلك غير بعيد على رجل ضرب الرقم القياسى على مايظهر فى ميدان الحرب والسياسة معا .. وبين هذين الأثريين - أى لوحة الفرات ولوحة جبل بركال - تقع امبراطورية تحتمس الثالث التى دانت له بحد السيف ومضاء العزيمة وحسن السياسة .

اذكروا تحتمس الثالث :

وبعد ، فانه لمن الغريب ان نبحث ونداوم البحث عن عباقرة العسكريين من رجال الغرب بينما تاريخنا القديم زاخر ببطولات فذة وخطط بارعة ومعارك هائلة تقتضى منا دراسة مستفيضة لاتكفى فيها أمثال هذه الصفحات ، وقد جاء فى كتاب « مصر القديمة » للدكتور سليم حسن أنه لا غرابة فى عبقرية تحتمس الثالث العسكرية ، فقد نشأ فى عصر كله حروب وغزوات وكان أجداده ملوك الأسرة الثامنة عشرة قد قضوا معظم حياتهم فى ساحات القتال شمالا وجنوبا يغزون آسيا مرة ويهدئون الثورات فى السودان مرة اخرى .

هذا الى أن البلاد من أقصاها الى أقصاها كان لاحديث لها غير الغزاة الذين استعبدوهم مدة قرن ونصف من الزمان وأن بقايا هؤلاء الغزاة كانوا لا يزالون يقطنون آسيا وأن الخوف كان لا يزال عالقا بأذهان المسنين منهم على الرغم من امتداد فتوح الفراعنة العظام حتى نهر الفرات .

وفي هذا الجو الذي كان يملؤه رنين السيوف وأهوال الحرب نشأ « تحتمس الثالث » وقد أراد والده أن ينشئه تنشئة دينية فوضعه في معبد آمون بالكرنك .

غير انه على مايظهر كان الكهنة انفسهم متشبعين بروح الهمم الذي كان يعد اله الحرب وناصر الفراعنة في ساحة القتال فبثوا في نفسه ذلك الروح الحربي الذي ساد البلاد في هذا العهد ولقنوه دروسا في البطولة والشجاعة وضربوا له الأمثال باجداده ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، ومن قبلهم ملوك الأسرة الثانية عشرة وبخاصة « سونسرت الثالث » الذي كان يعتبر في نظر الشعب المصري بطل الفتوح المصرية وموقظ روح الوطنية والبطولة .

والعجب العجاب أنك ترى الخطط الحربية المنظمة المحبوكة التي تعززها البسالة والاقدام والذكاء الخارق مما لم يسمع به في تاريخ الحروب من قبل ، ومن يطلع على هذا النظام وتلك الخطط البارعة التي وضعها ذلك القائد الفذ لايشك في أن تحتمس الثالث كان يفكر فيها ويدرسها من كل نواحيها ، ولا نزاع في أن معركة « مجدو » أولى انتصاراته ، وما جاء فيها من خطط سديدة وحركات فنية كانت أول درس ألقى على قواد العالم القديم ، بل والحديث من فنون الحرب وقيادتها .

أليس هو تحتمس الثالث أول من قسم الجيش الى جناحين وقلب ، وانه هو الذي بجسارته وحبه للمغامرة في سبيل نيل مآربه قد اتخذ أقصر الطرق ـ مع مافيها من مخاطرة ـ لمهاجمة العدو ، وانه هو الذي أراد أن يضرب المثل الاعلى لمجلسه الحربي الذي

عقده ــ ولا نعلم أن مجلسا حربيا أعلى عقد قبل ذلك فى العالم ــ فعول على أن يكون أول مضحى بحياته اذا ما دعا داعى الوطنيـة والشرف .

ثم نرى تحتمس يكشف لنا عن صـفحة اخرى من مجـده ومهارته وشدة ذكائه واحكام خططه فنشاهده يسير بأسـطوله ويفتح الموانىء التى تقع على شاطىء فينيقيا ليتخذها قاعدة حربية لتموين جيوشه التى كانت تغزو قلب آسيا حتى لايطعن من خلفه، وحتى يمكنه أن يضرب ضربته وهو مطمئن ، ويكون إسـطوله الرابطة بينه وبين مصر من جهة ، وبينه وبين جيوشه ــ التى كانت تسير فى أرض معادية ــ من جهة اخرى ، وقد أمد هذه الموانى بالمواد الأولية والصناع ، وكل مايلزم لجيشه من عتاد ومؤن .

وتظهر عبقرية تحتمس مرة اخرى فى ابتكار الخطط واعداد العدة لنيل مآربه مما جعله على رأس الفاتحين من حيث العبقرية والذكاء فقد فكر فى بناء سفن حربية لنقل جيشه عبر نهر الفرات حتى يسهل عليه اتمام الفتح ، ولكنه خشى من صنعها فى أراضى العدو الذى ربما افسد عليه خطتــه ، ولذلك بنى سـفنه قطعا متفرقة ثم ابتكر لها عربات من نوع تجرها الثيران حتى شاطىء الفرات ، حيث ركبت أجزاؤها وبذلك نفذت خطتــه التى كانت نسيج وحدها .

وها نحن أولاء نسمع فى تاريخ الحـرب الحديثة أن القواد العظام يأخذون دروسا عن قائد مصر ، فيقول دكتور « ولسون » ان الجنرال اللورد اللنبى سار على هدى خطط تحتمس الثـالث فى احراز النصر على الأتراك فى اختراق ممر « عـرونا » الذى سلكه الفاتح العظيم ويحدثنا المؤرخ « فولكنر » أن المارشــال مونتجمرى قد نقل السفن الصغيرة من شاطى البحر محمولة حتى نهر الراين ليعبر بها ويباغت العدو . مثلما فعل تحتمس الثالث قبل آلاف السنين .

الاسكندر المقدونى

القائد الشاب الذى قهر الدنيا وهو فى سن الثلاثين
والنجم الذى مازال مضيئا فى سماء الجندية منذ آلاف السنين .
والبطل الذى يزهو به شباب العسكريين فى كل حين .

ما زال اسم الاسكندر الاكبر مشهورا رغم مرور آلاف السنين ، فهو قدوة شباب العسكريين يقرأون فى تاريخه صفحات البطولة والمجد وآيات الاقدام واللماحية وسمات العبقرية العسكرية .

انه القائد الشاب الذى ولى أمر بلاده ، فوجهها الى الصمود ثم الى بلوغ المجال الحيوى ثم قادها الى ميادين الغلبة والفتح ، فصار سيدا لأكثر من نصف العالم فى ثلاث عشرة سنة ، وقهر الفرس ــ أكبر قوة فى زمانه ــ وغزا آسيا الى البنجاب .

ولم يكن الاسكندر قائدا فحسب بل كان مصلحا ومنظما يحمل راية الاصلاح الى الأقطار المقهورة ، فكسب تقدير اهلها وثقتهم ، وقدم اليهم الثقافة اليونانية وسعى الى تزواج الشرق والغرب ، ليكون العالم واحدا .

ولد الاسكندر بينما كانت جيوش ابيه ملك مقـــدونيا تمتد قبضتها نحو البلاد المجاورة وتكسب النصر بعد النصر ، واشترك والده ووالدته في تنشئته فاختار كل منهما معلما خاصا لتربيته، فاختار له أبوه فيليب : الأستاذ ليزيماكوس ، واختارت له أمه أوليمبيا : الأستاذ ليوانيدس ، وهو الذى طبعـه بطابع الرجـولة والخشونة والقصد ، وعوده الاعتماد على النفس والاقتصاد على الضرورى والعزوف عن الكماليات والملذات .

وهكذا نشأ الاسكندر نشأة جادة مستقيمة وعاش عيشـة الجنود وارتدى ثياب البطولة مبكرا . وقد حدث أن أحضر أحد تجار الجياد للملك فيليب جوادا محجلا من الجياد المشهورة ـ وكان يسمى « بوسيفالوس » ـ ولم يجسر أحد على ركوب هـذا الجواد الثائر الجامح ، فما كان من الاسكندر ـ وهو فى الثامنة عشرة من عمره ـ الا أن نهض فأخذ بعنان الجواد وادار وجهه نحو الشمس وقفز الى ظهره ومضى .. ! فلان له العنان وأسلس له القياد بين دهشة النظارة وفرحة ابيه الملك الذى قال له :

« يا بنى لابد لك من ملك أوسـع من هذا ، فان مقدونيـا وحدها أضيق من أن تتسع لهمتك » .

وفى خلال عشرين سنة كان هذا اليافع الشـجاع قد غزا العالم ، فلما مات حصانه هذا فى الهند أطلق الاسكندر اسمه العزيز على مدينة اسميت بوســيفاليا ، على حد رواية المؤرخ اليونانى الأشهر بلوتارك .

واستدعى له والده كبير فلاسفة عصره ، وأحد الخـالدين . أرسطو ، فكان له أعظم الأثر فى توجيهه وصقله .

ودخل الاسكندر حومة القتال تحت قيـــادة والده ضـد الأثينيين عام ٣٣٨ ق.م ـ وكان فى الثامنة عشرة من عمـره ـ قائدا لفرسان مقدونيا فى معركة شارونيا التى كان له فيها دور حاسم نم عن براعته ومقدرته وتفوقه ، كما أنه عرك شئون الحكم فترة طويلة فى غياب والده فعرف الكثير من هذه الشئون ، فلما قتل الملك فيليب غيلة فى عام ٣٣٦ ق.م استوى الاسكندر على عرش مقدونيا وهو فى العشرين ، وقد انعقدت له القياد العسكرية والزعامة الشعبية ، وبدأ بداية موفقة ، فقد كان يقول :

ان التأثير الذى يحدثه الحاكم فى بداية عهده يبقى خالدا مدى حياته .

وقد واجهته العقبات ســاعة ارتقــائه العرش ، فان أعدائه استصغروا شأنه ، وظنوا أن الفرصة مواتية لشق عصا الطاعة على مقدونيا ، وكاد الاغريق ينكصون على أعقابهم فى فكرة غزو فارس ، وأخذت مدن اليونان تتمرد على الحاميات المقدونية .

وسرعان ما أعد الاسكندر عدته واتجه الى المتألبين فدحر جيشهم فى معركة بغير دماء .. فقد قطـع عليهم خط رجعتهم وأحاط بهم فاضطروا للتسليم ، وأخضع بقية بلاد الاغريق ، واتخذ مجلس كوزنثة قرارا باختياره قائدا عاما لليونانيين فى حملة غزو آسيا التى كانت خطة غزوها قد وضعت فى عهد والده .

ديجونيس :

وفى مدينة كوزنثة تمت مقابلة تاريخيـــة مشـــهورة بين الاسكندر الفاتح ، والأســتاذ ديجونيس الفيلســوف المعلم ، وقد إقترب القائد الشاب من الفيلسوف الجالس فى عزلة يصـطلى بشعاع الشمس ، وقال له « هل لى أن أقدم لك خدمة »

قال الفيلسوف « ابتعد ، ودع الشمس » .

وقد كان الاسكندر يقول : « لو لم أكن الاسكندر لوددت أن أكون ديجونيس » .

الى الشرق :

تحركت حملة الاسكندر الى الشرق وعبرت الدردنيل وحطت في آسيا عام ٣٣٤ وكان تعدادها ٣٠ ألف مشاة و ٥ آلاف فارس، وكانت أول معركة له فى « جرانيقة » حيث هزم أحد الجيوش الفارسية واستولى على مدن الساحل فى آسيا الصغرى وبدأ يظهر براعته العسكرية فى ميدان فسيح تحت سمع التاريخ وبصره . وقد رصد المؤرخون مشروعات الاسكندر الاستراتيجية وخططه التكتيكية واعتبروه القائد الذى بز الجميع ، وقد اعتبره نابليون أعظم القادة الذين احتوتهم قائمته ــ وهى تضم سبعة قواد عظام : الاسكندر ، هانيبال ، يوليوس قيصر ، جوستاف أدولف ، تورين ، برنس أوجين ، فردريك الأكبر .

وكان الاسكندر الى جانب براعته العسكرية حكيما لايحفل بالماديات ، ولا يعرف الحياة الا انها جهاد وتضحية وأمل وعلو .. فلما أزمع غزو آسيا وزع ضياعه الموروثة على أصدقائه فلما سأله أحدهم « برديكاس » : ألا تستبقي شيئا لنفسك ؟ قال الاسكندر : نعم ، استبقيت الأمل ! .

وفى خلال المعارك كان الاسكندر يقف في عربته ، وقد وضع الدرع على صدره وريشا أبيض على جانبى خوذته ، وكان يخوض المعمعان وسط جنوده فيلتف حوله القادة ينشدون وقايته ويطلبون اليه الحيطة فلا يأبه لذلك ، وكأنه كان يقدر أنه لن يموت فى ميدان المعركة .

الحرب هي الهجوم :

والآن الى المعركة الكبرى . الى حيث يستعد الملك الأكبر ــ كما كان داريوس ملك الفرس يلقب نفسه ، وهو يحكم العالم ! ــ

ولم يكن داريوس ملكا قويا ولا قائدا محنكا ، ولكن جيشــه كان اكبر خمس مرات من جيش الاسكندر وكان يحارب فى الأودية التى يعرف مسالكها جيدا ، وبهذا كان له التفوق العددى والمباداة والأرض وروح الدفاع العدائى .. ولــكن كان قبــالته : ألمعية الاسكندر وجيشه المنظم .

وكان الاسكندر يفهم الحرب على انها الهجوم بأكبر قوة وفى أسرع وقت ، فما ان التقى بجيوش دارا الثالث فى أيوسى حتى بدد شملها وأحرز انتصارا باهرا جعله يتقدم من فوره لمهاجمة « صيدا » ثم « صور » التى قاومت طويلا فاضطر الاسكندر الى تدميرها .

اربيــــلا :

ان دخول الاسكندر المقدونى آسيا كان فصــلا من فصــول التاريخ الخالدة ، بدأت به معاملات أوربا بآسيا التى استمرت حتى اليوم ، فقد انتزعت أوروبا السيادة من آسيا .

وقبل الاسكندر كانت بلاده واوربا فى تهديد مســـتمر من اغارات الفرس وهجماتهم وتوغل نفوذهم ، فقلب الاسكندر الآية وفتح الطريق للغربيين الى الشرق .

ولهذا يعتبر المؤرخون معركة اربيلا من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، وقال عنهــا نابليون « عبر الاســكندر الفرات ودجلة وخاض معركة اربيلا ، التى فاز فيهـا على داريوس وحل عقــد الامبراطورية الفارسية ، واخذ مكانها ، ففتحت له عواصم فارس ابوابها ، فدخل بابل وسوسا وباسرجاد ، حيث دفن « كورش العظيم » ثم انعطف شمالا فامتلك شطوط قزوين ، وبلاد الديلم ، واقتص من باسوس الخائن لقتله داريوس ، وغزا هندسان . وأسر بوروس ملك البنجاب ، وعاد منها بثمانمائة سفينة » .

وتقع اربيلا شرقى نهر دجلة ، بينه وبين جبال كردستان فى سهل شاسع أرضه منبسطة ملائمة لسير العربات وتحركات الفرسان . وكان داريوس قد اختار المكان والزمان ، ولكن الاسكندر كسب المعركة بمهارته وحسن تنظيمه لقواته .

كان جيش الاسكندر ٤٠ ألف مشاة و٧ آلاف فرسان مسلحون بالرماح الطويلة (١٨ قدم) والسيوف والنبال والقلاع — أدوات الحرب في زمانه — وكان جنوده على حسد وصف المؤرخين وتقارير المعارك متفوقة في مستوى التسليح والتدريب والضبط والربط ، بينما كانت جنود داريوس كثيرة العدد متعددة الأوطان : من أفغانستان وتبيت وبخاري وجينوا وكردستان وتركستان وروسيا ، وكانوا يستخدمون الفيلة والعربات .

لقد مضى على هذه المعركة ٢٠٠٠ سنة تقريبا ، ومع هذا فان المدارس الحربية في العالم مازالت تدرسها وتستشف من خططها فنون الحرب وبراعة القيادة .

الأوضاع والخطط :

نظم داريوس جيشه على مهل فى مواقع دفاعية على شكل ثائر فكان القائد فى جبهة القلب على رأس الرماحة ، ورماة النبال والجنود المحترفين — المرتزقة — وقد وضع امامه ٥٠ عربة و ١٥ فيلا ، وقد مد جناحيه ، فوضع فى الجناح الأيمن مشاة قوية تتقدمها ٥٠ عربة ، وفى الجناح الأيسر مشاة ثقيلة وفرسان وأمامهم مائة عربة والف فارس .

اما الاسكندر فقد نظم قواته بطريقة أخرى ويلاحظ انه اهتم بوضع احتياطى خلف جبهة القتال من الفرسان .

وضع الاسكندر فى القلب ست فرق مشاة ، وفى الجناح الأيسر مشاة وخيالة قوية وفى الجناح الأيمن ثمان فرق فرسان ، ومعهم حملة تروس المشاة ، وكان الاسكندر فى الجناح الأيمن !

وقف الخصمان على قدم الاستعداد ، وفى فجر اليوم بدأ الاسكندر هجومه المفاجيء ، فتحرك الجناح الأيسر الفارسى نحو الجناح الأيسر اليونانى فأسرع الفرسان الى صدهم ، ثم تحركت العربات الفارسية والخيالة فقهرها حملة الحراب وضاعت هذه الهجمة القوية هباء ، واخيرا وقع أكبر هجوم فارسى بالفرسان على جناح اليونان الأيمن ، حيث كان الاسكندر نفسه قصد ذلك الهجوم وحتى ذلك الحين لم تكن جبهة الاسكندر قد تأثرت ، بل كانت تنتظر الفرصة المواتية ، وقد جاءت هذه الفرصة حين فتحت ثغرة فى صفوف الفرس بين المسيرة والقلب ، فاندفع اليها الاسكندر على رأس حرسه واخترق الجبهة الفارسية واحاط بالميسرة بينما تقدمت المشاة حملة التروس فشغلت قلب الجيش الفارسى .. ونظر دارا فاذا جيشه قد تقطعت اوصاله وسحقته الهزيمة فاطلق عنان حصانه وفر من الميدان قبل أن يقع فى الأسر، على حد تعبير الشاعر العربى .

بنفسك فر اذا ماشمت حتفا وخل الدار تنعى من بناها

فر دارا رغم أن جيشه كان يقاتل باستبسال ويتبادل مع أعدائه ازمة الموقف بين وقت وآخر ، ولكن فرار القائد ضيع عزيمة الرجال فكانت الهزيمة .

وهكذا انتهت معركة أربيلا ، ونزع الاسكندر صولجان القوة عن هامة آسيا ثم استولى على بابل عاصمة اول امبراطورية فى الدنيا .. وبدأت مرحلة جديدة من التاريخ .

اخلاق القادة :

أخذ القائد المنتصر يلقى نظرة أخيرة على ميدان المعركة الكبرى التى كسبها وبدأ يلقى أوامره ، فكان فى مقدمتها أن تكون النساء فى مأمن ، وقد رفض الأسكندر أن يقابل زوجة خصمه داريوس

ـ وكانت اجمل نساء زمانها ـ بل امر بارسالها الى مكانها معززة مكرمة .

واتجه الشاب الظافر الى سوريا ففتحت أبوابها المنيعة ثم غزا فلسطين ومصر فى أواخر سنة ٣٣٢ ق.م وخلصها من حكم الفرس وأعاد لها مكانتها الدينية القديمة واستقدم المهندس اليونانى دينوقراط فأنشأ مدينة الاسكندرية ، عروس البحر ، وبذلك أثبت الاسكندر انه رجل اصلاح وعمران وأثبت تاريخ عشرين قرنا من الزمان بعد نظره . وسيظل اسمه خالدا مع اسم الاسكندرية .

وفى مصر زار معبد فرعون ملتمسا العناية الالهية ، واعتبر نفسه ابن الاله آمون ثم غادر مصر فى عام ٣٣١ ق.م الى صبور حيث التقى بجيش دارا فى معركة كبرى قرب نينوى وواصل زحفه فغزا بابل وسوس وبلغ اقصى حدود الامبراطورية الفارسية .

فاتح الهند :

بعد أن اخضع الاسكندر فارس اتجه الى تركستان ثم انحدر الى طريق هراة وقابل وممر خيبر مقتحما بلاد الهند حيث التحم فى معركة هائلة مع القائد الهندى « بوروس » وهزمه .

وقد سأل الاسكندر خصمه المهزوم بوروس عما يريد منه ؟

فقال بوروس : أريد أن تعاملنى معاملة الملوك .

فأجابه الاسكندر الى ما اراد ، وتركه ملكا على بلاده .

وعاد الفاتح الشاب ، والمصلح النابه ففكر فى ربط الشرق بالغرب عن طريق المزاوجة بين اليونانيين والفارسيين حتى تزوج فى ليلة واحدة عشرة آلاف فارسى ومقدونى ؟

وقد ذكر الدكتور طه حسين فى كتابه « قادة الفكر » ان الاسكندر لم يكن قائد جيش ليس غير وانما كان قائد فكر قبل كل شىء وفوق كل شىء ، وان تجربته لو تمت لغيرت وجه الارض ولحولت سير التاريخ .



وضع هانيبال خطته لغزو ايطاليا فقالوا انهـا مجازفة ، وجنون ، ومستحيل !.. ولكن هانيبال ركب المجازفة واستخدم الجنون وفعل المستحيل .. وغزا ايطاليا

كانت روما سيدة العـالم فى زمانه ، لا تستطيع دولة أن تواجه جبروتها ، كان مصير عدواتها الهزيمة تلو الهـزيمة حتى جاء ذلك القرطاجنى الجسور ، والجندى العبقرى فأذاق جيوش روما مرارة الهزيمة ورسم على ثرى ايطاليـا خطوط احدى المعارك التاريخية التى تدرسها المعاهد العسكرية منذ أجيال الى يومنا هذا وهى معركة « كانا » .

ان هانيبال هو أحد عظماء القادة فى التاريخ كله ، ويضعه بعض المؤرخين والثقاة فى رأس القائمة ، وقد جعله نابليـون ـ فى قائمته ـ ثانى قائد فى التاريخ ، بعد الاسكندر المقدونى ، ولا تخلو

قائمة من قوائم عباقرة القادة من اسمه ، فتجده فى قائمة نابليون، وليدل هارت ، وويفل وغيرهم من المعنيين بتاريخ القادة .

ومن العجيب أن هانيبال قد انتهى بهزيمة ماحقة قضت عليه وعلى بلاده قرطاجنة ، ومع هذا فقد وضع المؤرخون على راسه تاج العبقرية العسكرية ولم يضعوه على راس هازمه .. ان سيبيو لم ينل واحدا على عشرة من شهرة هانيبال ومجده الحربى .

كان أبوه هملكار جنديا وحاكما بأمره فى شمال أفريقيا ، وكان لايفتأ يرنو ببصره عبر البحر المتوسط ، ويتمنى لو استطاع يوما أن ينزع « تاج » العالم عن هامة روما ويجعله من نصيب قرطاجنة .. وقد حدث أن استعد للحرب ، وذهب يؤدى للالهة الصلاة والقرابين ، وفجأة لمع فى ذهنه خاطر ، فدعا اليه ولده هانيبال ــ وكان طفلا فى التاسعة من عمره ــ وسأله :

أتحب هانيبال أن تأتى معى الى ميدان الحرب ؟

فأجاب الفتى فى هدوء وثقة : نعم .

وارتدى الفتى ثياب الجنود ، واستمع الى راى أبيه فى روما، وحكامها ، فصب هانيبال لعناته عليها واقسم أمام أبيه على تحطيم قواتها .

ومنذ تلك اللحظة أصبحت كراهية روما عقيدته ، وأصبح هو : أخطر عدو لروما .

ولم تكن قرطاجنة موطن محاربين ، ولكن تجار وبناة سفن وملاحين ، فلم تكن الحرب لعبتهم المفضلة ، وكانوا ينظرون الى روما كعملاق لابد من الخضوع له ، ولا سبيل الى النجاة من سطوته ، وكان هملكار ــ والد هانيبال ــ يعبئهم للحرب ، فنشأ هانيبال ــ فى جو التعبئة والاستعداد للحرب ، وأخذ بطابع الجندية مبكرا ، وأقبل على نظمها وتقاليدها بشغف ظاهر ، وأخذ يتطلع الى قيادة الجنود وادارة المعارك .. وهو الشاب القوى

الرياضي الذي اشتهر بين أقرانه بتفوقه في العدو والملاكمة وركوب الخيل .

وهكذا نشأ معدا للقيادة منذ صباه ، معنيا بالحرب وادارة الرجال ، شغوفا بالعناء والمشقة ، فهو يستطيع أن يستغني عن الاكل والنوم ما دام هناك عمل وجهد وخطر .. فكانت هذه هي عناصر القائد العبقري .

وقد عرف الجنود جيـــدا وعاش بين ظهرانيهم وهو طفل ، فنشأ مفطورا على حسن المعاملة ودقة الادارة وحسن التدبير ، وكان ذواقة متمدينا .. وان قال عنه بعض المؤرخين الايطاليين انه كان قاسيا شريرا متعطشا للدماء .. ولكن التاريخ قال فيه كلمته الحقة وجعله في مصاف عظماء القادة المثقفين ، فقد ترك كتابات تشهد بتذوقه للادب الاغريقي والفلسـفة ، وكان له أستاذ من أثينا يعلمه ويصقل عقله وروحه .

وفي الثانية عشرة من عمره رأى القائد الشاب رؤيا العين مصرع والده ، وقائده ، وبعد لحظات كان قائدا للفرســان لمدة ثماني سنوات تحت القيــادة العامة التي عقــدت لأخيه الأكبر هادسدروبال .. الذي لقي مصرعه في ساحة القتال وسيفه في يده .

واستقر رأى الجيش القرطاجني على تولية هانيبال القيادة العامة سنة ٢٢١ ق.م وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

أصبح هانيبال قائد جيش بلاده فنظر نظرة المسئول واشــاح بوجهه ، فقد كان الجيش خليطا من محاربين غير مؤمنين بأهداف الحرب ، فهم مرتزقة ، وليس يسعد القائد الأصيل أن يكون قائدا فحسب وانما أن يكون قائدا لجيش منظم .. **فاخذ هانيبال يعمل لتنقية الجيش وتطهيره وتصحيح أدواته ورفع معنوياته ، واستطاع ان يجعل منه جيشا نظاميا مدربا** ، وضاعف عدده وأصــلح أداته

وقاده الى غمـار حروب كبرى ، بلا كلل ولا ملل ، فواجه روما ، صاحبة الحول والطول ، ورفع راية أفريقيا فى قلب أوربا .

الحرب ديدنه :

فما هو سر هانيبال ؟

قال بعض المؤرخين ان هانيبال كان مطبوعا على ماكينة الحرب مدموغا بحاسة استراتيجية ، لم يتمتع بها غير عـدد قليـل من القادة فى جميع العصور .

وقالوا انه كان عارفا بالشعور والعـواطف التى تعتمل فى نفوس الرجال فاستطاع أن يقودهم بنجاح ويفيـد من مزاياهم ويكسب خير ماعندهم .

ولهذا فقد استطاع أن يقودهم عبر البحار والأنهار والجبال ، وأن ينفـذ خططه الجهنمية ، ويهـزم بهم جنرالات روما ذوى الفخامة .

وكانت له ملكة تقدير الموقف في لحظات ، وفهم ماينتظر أن يفعله العدو .. كان يدرس الموقف بروح رئيس فريق الكرة فيعلم سلفا ما ينتظر من الفريق الآخر من تكتيكات وتوصيلات وخطط للشوط الثانى .

وكان هانيبال أول من « شغل » الجاسوسية ، وكان أستاذا فى فن الجاسـوسية ، يبعث العيون والآذان ترصـد تحـركات القوم وتستطلع أنباء مراكز القيادة ، وكان له أتباع وجواسيس فى صفوف أعدائه .. قبل أن يتحـدث الجنرال فرنـكو عن « الطابور الخامس » بعشرين قرنا من الزمان !

الحرب علمته :

ان تدريبه المبكر ، ونشأته فى مقر قيـادة والده نشـأة عسكرية قاسية وتمرسه بشئون الحرب من جميع نواحيهـا .. علمه ذلك كله كيف يعامل جنوده ويأمرهم ويحركهم ويقودهم الى

المعركة ، كيف يواسى الجريح ويهدىء الثائر ويستحث الخامل ، علمه ذلك كله متي يلين ومتي يشتد ، وكيف يحفظ علي رجاله روحهم المعنوية فى أشد الأزمات ، فهو كان اداريا ومنظما وعالما بالنفس واستاذا فى فن القيادة .. ولهذا تبعه جنوده حيثما سار وأطاعوه كلما أشار ، فخاض بهم السهل والوعر والماء واليابسة ، وكان كما قال : « لا انظر خلفى مهما يحدث » !

لا شيء غير الهجوم

وقد عركته الشدائد وصهرته المسئوليات الجسام حتى جاء وقت معركته الكبرى واختباره النهائى امام روما ، وقد نشبت الحرب بين روما وقرطاجنة بسبب غزو القرطاجنيين لمدينة « سجنتوم » فى شرق اسبانيا ، فوجدت روما فى ذلك خطرا على ميزان القوة التى كانت تعتز به فبعثت الى غريمتها انذارا بالكف عن حصار هذه المدينة ، والا فانها تصبح فى حالة حرب معها ، وبعد ثمانية أشهر من الحصار سلمت سجنتوم ودخلها هانيبال ، وبدأت الحرب بي نروما وقرطاجنة .

وكان رأى هانيبال ان الحرب هى الهجوم ، ولهذا قرر ان يبدأ بالهجوم على قوات روما ، فى عقر دارها ، فنظم ثلاثة جيوش خصص أحدها لحماية افريقيا ، والثانى لحماية اسبانيا ، وأخذ الجيش الثالث الى اعظم عملية عسكرية فى ذلك الزمان .. غزو ايطاليا ، وقهر « روما » .

وقال المؤرخون : ان هذه الخطة كانت المجازفة بعينها ، أو الجنون ، أو المستحيل ، فلم يكن أحد يتصور ان جيشا افريقيا يستطيع عبور جبال الالب التى لم يسبق لجيش عبورها ، ولكن هانيبال ركب المجازفة واستخدم الجنون وطلب المستحيل وغزا ايطاليا .

افريقى فى ايطاليا :

تحرك الجيش القرطاجنى عبر البرانس ونهر الرون واكتسح الجول ، ووصل الى جبال الالب ، وهنا فتح التاريخ صفحة ناصعة من صفحات المجد الحربى ، وكان عبور هانيبال لجبال الألب حدثا من أعظم الأحداث العسكرية فى جميع العصور .

لقد كان رجال هانيبال من اهل السهول لا المرتفعات ، وكانت احمال المشاة ثقيلة ولم يعتادوا الجو البارد وكانوا يستخدمون معدات الحرب الثقيلة ، وعددا من الفيلة لحمل الاثقال ... ولا ريب فى ان استخدام الفيلة كان عنصرا هاما للحملة ولكن المشكلة كانت فى كيف تعبر الفيلة الانهار والجبال ؟

واذن فكيف بنى هانيبال « الافريقى » الكبارى وكيف مهد الطريق ، وكيف عبرت الفيلة الماء ــ وهى بطبيعتها تخافه ــ وخاضت الشلالات ... لقدكان امام الحملة من المشكلاتالادارية ما يفقد الامل فى تقدمها ، كانت هنا لكمشكلات المواصلات والتموين والجو القارس والطرق غير الممهدة ، والجبال والشلالات والرعد والبرق والصخور .

ولكن المعجزة وليدة العبقرية ، وقد نجحت حملة هانيبال ، ووصلت قواته الكبيرة سالمة ٢٠ الف مشاة و ٦ آلاف فارس ، وفوجىء الرومان ، فقد وصل الافريقيون الى أرض ايطاليا .

اما هانيبال فاعطى جيشه راحة قصيرة وسرعان ما هب للنضال ، فاحدق بقوة رومانية فى « تيسنو » بفضل خفة الحركة ، فقد كانت معركة فرنسان ، واعقب ذلك تحركه بمشاته نحو « تربيا » حيث هزم جيشا رومانيا كبيرا بعد مفاجأة بارعة ، وشرع يجتاز جبال الأبنين لغزو اترووريا .

وحشدت روما قواتها تحت قياده المتصل فلامينيوس قرب بحيرة تراسيمنس .. فماذا كانت خطة هانيبال ؟

ترك ثغرة امام مواجهة الجيش الرومانى تتجه نحو البحيرة . وحشد قواته على جانبيها فى مواقع مخفية بعناية ، فلما تقدم الرومان لم يلقوا مقاومة تذكر ، فظنوا انه النصر ، ولكنه كان القبر ... وهكذا قضى على جيش رومانى كبير ، ولم يكن هانيبال قد أظهر خير ما عنده .

كانا :

وبدأت معركة « كانا » التى تعتبر الى اليوم نموذجا لاروع ما انتجته القرائح العسكرية فى تقدير الموقف ، واحكام الخطة ، ودقة التنفيذ ، واكتمال النجاح ، وبلوغ الاهداف .

كان الجيش الرومانى أكبر جيش حركته روما وقد بلغ ٧٦ الفا ، بينما لم يبلغ جيش هانيبال نصف هذا العدد ، وانتهت المعركة وانتهت معها حياة ٧٠ الف جندى رومانى ؟!.

فى هذه المعركة التاريخية اتى هانيبال عملا من اعمال عبقريته ، فقد كان للرومان السبق والاختيار والمبادأة ، فصفوا قواتهم فى أنسب اماكن للمعركة المرتقبة على ضفاف نهر افيدوس ، وكان هانيبال يحارب وظهره الى النهر ، فلو أصابته هزيمة لانتهت العملية بكارثة ! وسرعان ما اسعفته قريحته وهداه نبوغه الجرىء وبراعته الاستراتيجية التى امتاز بها عن جميع القادة المشاهير فى جميع العصور .

وضع هانيبال مشاته فى القلب وجعل الفرسان جناحيه ولكنه ترك امام مواجهة العدو خطا ضعيفا من المشاة بينما جعل الجانبين ذوى كثافة ومنعة ، وبدأت قوات الوسط تهاجم مشاة الرومان الاشداء ، وبدأ الرومان يضغطون بشدة فنجح ضغطهم وأخذوا يهجمون ويتقدمون فى قلب قوات قرطاجنة المهزومة ،

والنصر يرفرف على الرومان والنهاية تقترب بالفوز النهائى .
وهنا فى المكان والزمان المناسبين اعطى هانبيال اشارة الهجوم فتداقعت القوات من كل جانب والفى الرمان انفسهم بين شقى الرحى ودارت عليهم الدائرة ، وقطع الفرسان القرطاجنيون خط رجعتهم واتموا حلقة الحصار وانتهت المعركة بانتصار تاريخى تام . واصبح هانيبال سيد الميدان فى معظم الاراضى الايطالية .

وقد سجل التاريخ لهانيبال بعد تلك المعركة مأثرة انسانية تدل على تأصل روح الجندية العميقة فى نفسه ، وكان بعض المؤرخين الايطاليين يرمونه بالوحشية والفظاعة ، فاذا هو يحيى ويكرم قائد العدو الذى لقى مصرعه فى المعركة فأمر بتشييع جنازته عسكريا وودعه مع الاجلال والاحترام .. وهكذا كان هانيبال خصما عنيفا ولكن خصما شريفا ، لا يحارب الا عدوا قويا ، ولا ينازل فى غير ميدان .

أما « كانا » فلم تكن نهاية الحرب مع روما ، ولم تكن نهاية ما يتطلع اليه هانيبال ، فهو لم يقف عند حد . فقد كانت فى أعماقه آمال كبار وليس مجرد انتصار هين ، كان يريد غزو روما نفسها ووضع قرطاجنة فى مكانها : سيدة العالم .

وشرع يشطر ايطاليا ، فبدأ يغزو الجنوب حيث كسب معركة تارنتوم . ثم اتجه نحو روما ، وكانت الجيوش الرومانية تنفذ خطة جديدة : تجمعت وعقدت قيادتها للقائد فابيوس مكسيموس، وراحت تتدرب على آثار المعارك الغابرة وتتبع خطوات العدو دون أن تشترك فى معركة حتى تجهد قواته ويطول بها الترحال ويصيبها الملل .

وكانت خطة بارعة ، فقد بدأ جنود هانيبال يملون ، ولا يعرفون هدف حملتهم وقد تكبدوا المشاق وطال بهم البعد عن الاهل والوطن ، وقد نبهه احد معاونيه « مارهريال » الى خطورة

الموقف : « أنت يا هانيبال تستطيع أن تحرز النصر ولكنك لاتعرف كيف تفيد من انتصاراتك » !

ثم ماذا كان موقف أصحاب الشأن فى قرطاجنة ؟

انهم يكرهون هانيبال ويخشون من نتائج انتصاراته ظنا منهم انه سيعود يوما فيطردهم ويأخذ بمقاليد الحكم فى يده وحده ! وكانوا يضحكون من أنبائه وطلباته ! .

وقد طلب ارسال الامداد والمؤن فرفضوا أية مساعدة ! وقد استطاع أخوه الأصغر هسدروبال أن يسير على رأس قوات من اسبانيا ولكنها هزمت فى الطريق قبل ان تصل اليه وقتل هسدروبال ، وأرسل الرومان الى هانيبال رأس أخيه ، فكان ذلك ايذانا بمعركة لا رحمة فيها .

لماذا ضحك هانيبال :

لقد بقى هانيبال ست عشرة سنة يهدد روما ويحرك قواته على ثرى ايطاليا ثم تغير الموقف وانتقل ميزان القوة من يد الى يد وولى قيادة الجيش الرومانى قائد المعى جديد هو « بيلوبيلوس سيبيو » الذى قدر له أن يدخل من باب التاريخ فقد فكر فى هزيمة هانيبال بأسلوب لم يعهده من قبل ، فترك سيبيو أوربا الى افريقيا وراح يهدد قرطاجنة ، فاضطر هانيبال ان يسارع الى وطنه والتقى بخصمه العنيد فى معركة من معارك التاريخ الفاصلة « زاما » ، ٢٠٢ ق.م .

وفى هذه المعركة كان هانيبال يضع خططا بارعة من وحى عبقريته كما يفعل الفنان فى لوحاته الخالدة ، ويضرب ضرباته الاستراتيجية والتكتيكية كأستاذ معلم . ولكن بز التلميذ أستاذه ، واستطاع أن يهزمه ويرديه .. بفضل الكثرة العددية والروح المعنوية ، فقد كان الوهن يتطرق الى القرطاجنيين ، ولم تكن روحهم المعنوية فى مستوى قائدهم العبقرى ، فكسبت روما المعركة الأخيرة .

وانتصر سيبيو على هانيبال !

ولكن هانيبال بقى كنموذج للجندى الأصيل والقائد العبقرى .

ووقف هانيبال فى مجلس الشيوخ يضحك وهم يبكون .. يا لعدالة السماء ، اذ طالما بكى هانيبال أسى على اهمالهم فى مساعدته وكانوا يضحكون !

ان هانيبال لم ينهزم ، ولكن « الرؤساء » هزموا جيوشهم وبلدهم .

سأل سيبيو غريمه هانيبال ، بعد ان هزمه :

من هو اعظم جندى فى التاريخ ؟

فرد هانيبال : الاسكندر .

وعاد سيبيو يسأله : ومن أعظم جندى بعد الاسكندر ؟

قال هانيبال : أنا .

وقال سيبيو : ان الرجل الذى هزمته هو اعظم قائد عرفه العالم .

والحكم ما حكمت به الأعداء .

خالد بن الوليد

لقد شهدت مائة زحف أو تزيد وما فى بدنى موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة .

وهانذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت اعين الجبناء .

يكثر كتاب الغرب من التحدث عن قادتهم المشاهير فى جميع العصور فيحملون الى جيل بعد جيل مناقب هؤلاء القادة ، وخططهم ووقائعهم ، ويجد النشء فى هذه السير الحافلة مثلاعليا يعجب بها وينسج على منوالها ، فيظل النور منبعثا من الماضى يضيء الطريق للسائرين فيه .

وأخذنا نحن عن كتاب الغرب مؤلفاتهم وتراجمهم فالفيناها حافلة بما يخلب العقول عن هؤلاء القادة الأعلام ، واكثرنا من قراءة تواريخهم ودراسة حملاتهم متاثرين بما يصل الى ايدينا من هذه الكتب والمؤلفات الاجنبية .

فترى أحدنا يتلهف على قراءة كتاب عن الاسكندر المقدوني او هانيبال القرطاجنى ، وترى آخر ينظر فى شوق الى كتاب أعلن عن صدوره يتناول حملات اليونان أو الرومان أو الفرنسيين . وكأن التفوق فى الحرب من شأن الغرب وحده ، وكأن القادة العظام لم ينشأوا الا فى الغرب فحسب !

ولو فطن أبناء العربية الى ما فى تاريخ بلادهم العريق من آيات بينات سطرتها سيوف آبائهم ، وبراعة وعبقرية سجلتها أعمال قادتهم لكان خيرا لهم ان يقبلوا على صفحات المجد والفخار التي حفل بها كتاب الأمة العربيـة ، فاذا هم أمام أعظم القـادة وأبرع الخطط وأسمى المبادىء وأرفع الصفات .

وقد يكون لقراء العربية بعض العذر فى قلة علمهم بحروب العرب فقد اعتدنا فى الشرق ان نهتم بما يرد لنا من الغرب ، ورأينا الكتب والمؤلفات الأجنبية تغرق سـوقنا ، سواء بلغاتها أو مترجمة ، أضف الى ذلك ما يسبق هذه الكتب عادة من اعلان ، وما تظهر به من اناقة فى الطبع وبراعة فى الاخراج .

هناك نقطة هامة أبرزها الأستاذ عباس محمـود العقـاد فى كتاب « عبقرية خالد » حيث يقول : فالصورة الشائعة فى خيال أكثر القارئين عن البادية ان حروب الصحراء لم تكن الا مشاورات بالسيوف والرماح ، أو بالقسى والمقاليع ، لا ترجع الى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها ما يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق من السابق ، وقوام أمرها شرازم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال ان تفر بعد الكر ، أو تكر بعد الفر .

وليس فى وسع عالم من علماء الحروب فى زماننا هذا ان يأخذ عليهم خللا فى خطتهم لم يلتفتوا اليه أو يحصى عليهم وجها من وجوه التدبير قصروا فيه ، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد ان يستقيم للمقاتل :

١ ـ اهبة الاستطلاع .
٢ ـ رسم الخطة .
٣ ـ تنظيم الجيش في مواقعه .
٤ ـ تنظيم الجيش في حركاته .
٥ ـ اذكاء العزيمة في النفوس .
٦ـ اضعاف الهزيمة في نفوس عدوه .

وهذه كلها هي صفوة لباب الحرب في العصر الحاضر وفي العصور الغابرة ، وفي جميع العصور الى آخر الزمان .

مدرســة البادية

ينشأ القادة اليوم في حجرات الدرس ، ولا يمكن أن نسمع في هذا العصر عن قائد لم يتلق علومه العسكرية في مدرسة او اكاديمية ، ولعل آخر عهـدنا بالقادة من أبناء الهواء الطلق كان في الحرب العالمية الأولى حيث وصل الى مرتبة القيادة رجال من طبقة الجنود ، وقبل ذلك كان نابليون يعفى الجنرالات القـدامى من مناصبهم ويرفع الى مرتبة القيادة جنودا شجعانا لم يقـرأوا فن الحرب على الورق ولم يعـرفوا وضـع الخطط من الخـرائط والمصورات .

وكلما عدنا الى الوراء في دراسة الحروب والقادة وجدنا ان القيـادة كانت هبـة اختص بها بعض الأفراد فبرعوا وصـنعوا المعجزات التي لا تجد لها نظيرا حتى اليوم على الرغم من التغيير الهائل الذي طرأ على جميع أدوات الحرب .

وهم اليوم يدرسون في اعجاب وتقدير معركة « ارابيلا » أو « كانا » بعد عدة قرون .. اما « الأساتذة » قادة هذه المعارك فكانوا قادة بالطبيعة والالهام وحاسة الحرب .

و « خالد بن الوليد » من هؤلاء القادة الذين لم تضمهم مدرسة ولم يكن لهم أستاذ ، وانما كانت مدرستهم البادية وأسـتاذهم الالهام .

نشأ خالد فى بنى مخزوم ، وكان والده من السادة المعدودين فى قريش ، ولم يكن نور الاسلام قد أشرق ، فنشأ خالد فى الجاهلية وحارب فى صفوفها ثم أضاء الله قلبه بالاسلام فى شبابه فصار سيفا من سيوف الله سله على المشركين .

وقد عرف خالد الحرب يافعا وخاض غمارها بشجاعة فائقة وحارب ضد المسلمين فكان العدو المتمكن ثم حارب مستظلا براية الاسلام وقائدا لقوات المسلمين فاظهر من البراعة فى خططه والشجاعة فى تنفيذها ما يجعله فى مصاف عظماء القادة ، فخالد ابن الوليد يجب ان يعتبر مثلا أعلى تتجه اليه دراسات شباب العرب فيجدون فى سيرته وعبقريته خير ما يمكن الاقتداء به والسير على منواله .

بطل « أحد »

نشأ خالد نشأة شباب البادية ، صحيح الجسم ، مهيب الطلعة ، متفوقا فى ركوب الخيل شجاعا مقداما ، وورث قيادة « الاعنة » وهى بمثابة قيادة الفرسان حتى أصبح قائد فرسان قريش فى وقعة « أحد » ضد المسلمين ، وقد أبدى فى هذه الوقعة براعة وجسارة ، فلما سنحت له فرصة ووجد فى صفوف المسلمين ثغرة قام بهجمة مضادة خاطفة فاخترق الجبهة ودار حولها وأحدث فى المسلمين خسائر فادحة فانقلب ميزان المعركة وانتقل النصر من عسكر الى عسكر وجرت معركة دامية رهيبة لكثرة ما سال فيها من دماء وما قضى بسببها من رجال ، حتى أشيع ان « محمد وأبو بكر وعمر » قتلوا وان النصر انتهى فى جانب المشركين .. ولكن قوات المسلمين أفاقت من المفاجأة وحاربت بايمان وبسالة وتم لهم الفوز بعد عناء .

كذلك كان خالد مصدر قوة فى صفوف المشركين وكاد ان يحرز لقومه الغلبة فى معركة الخندق ، ثم دخل فى دين الله فكان ذلك بشيرا له بالمجد وواتته الفرصة لقيادة جيوش الاسلام فى

غزوات كبرى أبدى فيها من مهارته وعبقريته ما جعله من عظماء القادة فى التاريخ .

سيف الله

تلقى خالد من اخيه رسالة يدعوه فيها للاسلام ، ويروى له ان رسول الله صلوات الله عليه قال « ما مثل خالد يجهله الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره » .

واسلم خالد ، وقال :

يا رسول الله ، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق ، فادع الله يغفرها لى .

فأجابه النبى عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله ، الحمد لله الذى هداك . قد كنت أرى لك عقلا ، ورجوت الا يسلمك الا للخير .

وأصبح خالد فى صفوف المسلمين تصادفه جنود رفقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم ، حتى تم للاسلام النصر المبين ، ثم حارب خالد عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وجيوش الفرس والروم ، فاتسع مجال قيادته وازداد اشراق عبقريته .

القيادة البصيرة

كان أول قتال يشترك فيه خالد بعد اسلامه هو حملة « سرية مؤتة » التى جردها الرسول عليه السلام الى البلقاء لتأديب المعتدين الغسانيين . وفى هذه المعركة استشهد القادة الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة فاجتمعت الكلمة على تنصيب خالد بن الوليد قائدا .. فنظر فاذا هى معركة غير متكافئة وقد منى المسلمون بالهزيمة وكثر عليهم أعداؤهم ، فلم تملكه فطرة المجازفة وانما ملكته فطرة القيادة البصيرة فاصطنع

الاستعداد للهجوم واوقع في روع عدوه انه سيقاتل من غده ، فلما كان الغد كان جيش المسلمين قد قام بعملية انسحاب متقنة وارتداد مأمون ونجا مما كان قد الم به من هزيمة وضياع .

وقد أمن خالد جيشه عند انسحابه بقتال المؤخرة حتى يضمن له السلامة ، وأبلى في ذلك القتال حتى اندقت في يده تسعة سيوف وعرف من ذلك اليوم بلقبه الذى اضفاه عليه النبى وهو : سيف الله .

غزوة حنين :

نفرت قبائل همدان من هوزان وثقيف وجشم وقامت الى شق عصا الطاعة ، وأعدت العدة لمهاجمة المسلمين وولت قيادتها فتى جريئا في سن الثلاثين : هو مالك بن عوف النضرى الذى خرج بالقبائل بكليتها ، اى برجالها ونسائها وابنائها وممتلكاتها لكى يجعل المحاربين يتماسكون ويقاتلون ذودا عن أهليهم واموالهم قتالا باسلا مستميتا .

وفى المعسكر ، كان خالد على طليعة الجيش في مائة فارس .

وجاء فارس من المخابرات يقول : « انه صعد جبـــلا » ، فاذا بهوزان عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشاتهم اجتمعوا الى « حنين » .

فتبسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله » ، وأرسل « نقطة ملاحظة » في أعلى الجبل ودعا افرادها الى اليقظة ، ثم جاء اليوم الثانى فقال انه لم ير احدا من العدو ، فبعث الرسول مقدمة . وفجأة قام العدو من مكمنه الذى احسن الاستتار فيه وهاجم بشدة وكسب الجولة الأولى من القتال بفرار الخيل والجمال ولحاق المشاة بهم وكادت الهزيمة تتم لولا ان تقدم الرسول بشخصه الكريم وثبت في هذا الهول الجارف وأخذ زمام المعركة كلها في يديه فتجمع حوله

المقاتلون واستبسلوا فى القتال ، وبدأوا الكر بعد الفر وهانت النفوس .. وفى هذه المعركة سقط خالد مثخنا بالجراح .

وقد أوشك المسلمون ان ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ومن ناحية فان عدوهم كان ماكرا بدأ يحشد الروح المعنوية الى أقصاها ، ثم استخدم المفاجأة فكانت له الغلبة ، وقد وصفت هذه المعركة فى القرآن الكريم « ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين » .

وعلى الرغم من هذه الهزيمة ، التى كادت تودى بجيش المسلمين لولا ان تداركتها العناية ، لقى خالد تقدير النبى عليه السلام وثناءه فبارك له وواساه .

حرب الردة

اشترك خالد فى حروب الردة من أوائلها الى نهاياتها ، وكانت البادية قد ارتدت عن الاسلام بعد وفاة محمد عليه الصلاة والسلام ووقفت المدينة ومكة وجيرتهما تدافع عن حياضها وعن عقيدتها ، فأخفقت هجمة المرتدين الأولى على معقل الاسلام ، وكان عنصر المفاجأة مدار هذه المعركة ، فكان المرتدون يتوقعون لقاء الجيش فى المدينة ولكن الخليفة كان قد خرج بمن معه فى الليل على تعبئة كاملة وهبط على المرتدين وهم على غير أهبة فلم يلبثوا حتى انهزموا وتفرقوا .

ثم كان لخالد نصيب القيادة على الحملة المتوجهة الى «بزاخة» لقتال المرتدين وقد ودع الخليفة هذه الحملة فقال « أيها الناس ! سيروا على اسم الله وبركته ، فاميركم خالد بن الوليد » .

وأسر الخليفة الى خالد بأوامره : فاذا دخلت ارض العدو فكن بعيدا عن الحملة فانى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالادلاء وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر فى أصحابك

على تعبئة جيدة .. **واحرص على الموت توهب لك الحياة**، ولا تقاتل بمجروح فأن بعضه ليس منه، واحترس من البيات فان للعرب غرة .. واذا لقيت أسد وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الديرة فيميل مع من تكون له الغلبة .. سر على بركة الله».

أما جيش طلحة فقد امتاز بكثرة العدد والسلاح وباختيار الأرض فهو فى موقف دفاعى ينتظر جيش خالد الذى يقطع الفيافى، فلماالتحم الجيشان ثبتطلحة وأصحابه ثبات المستميت وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا عن الميمنة ثم الميسرة حتى لاح لهم النصر، وجاء بعض رجال خالد ينصحونه بالتراجع ليعتصم بجبال طيىء فقال خالد!

— لا أعتصم بغير الله.

هازم الفرس والروم

خرج العرب للقاء الفرس والروم فكانت معركة احد طرفيها اليقين والعزيمة وطرفها الآخر الكثرة والهيبة.

حارب خالد الفرس فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطىء، ولم يفشل قط فى واحدة منها، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة، فيقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئًا أو غير مفاجىء، وكان — كما وصفه عمرو بن العاص — «فى أناة القطاة ووثبة الأسد» فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة.

وكان خالد يعمل بمبادىء الحرب — قبل نابليون بمئات السنين — فهو يكون فى كامل (الحشد) فى الزمان والمكان الحاسمين، وهو لا يسرف فى استخدام رجاله، فاذا كان الف رجل يغنون عن الفين بعث بهم مطبقا مبدأ (**الاقتصاد فى القوة**)، وهو يبعث العيون والطلائع ويرسل المقدمة، أو يضع رجالا فى

اعلى الجبل للمحافظة قاصدا ((**الوقاية**)) ، وهو يقبل على الموت بروح هجومية غلابة لعلمه بان النصر يطلب ((**بالأعمال التعرضية**)) ثم يوحى الى خصمه بغير ما ينتوى حتى يستخدم ((**المفاجأة**)) .

وما يذكر لخالد فى مقام الثقة بالنفس ، وهى من دعائم القيادة ، انه كتب لقائد الفرس قبل المعركة يخيره بين الاسلام أو الجزية أو الحرب ، ويقول : « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

فلما طلب قائد الفرس مبارزته نزل اليه خالد وصرعه فى الحال .

وعندما التقى الجيشان انتصر العرب فى وقعة « ذات السلاسل » وهرب الفرس ، ثم اشتبكا فى وقعة القار التى بلغ قتلى الفرس فيها ثلاثين الفا وهرب الباقون ، وكان ذلك نصيب الباقى فى وقائع « الوجه » و « اليس » و « الفراض » من وقائع حرب العراق التى قضت على نفوذ الشاهنشاه الأعظم !

وقال أبو بكر : « أعقمت النساء ان يلدن مثل خالد » ! .

وقال فى موضع آخر : « لانسين الروم وساوس الشبان بخالد بن الوليد » .

قاهر ((هرقل))

خرج خالد على رأس عشرة آلاف محارب من الخيرة وقطع بادية العراق وهى مفازة « لا يصاب فيها ماء ، مع مضلتها » فقطع المسافة فى ثمانية عشر يوما ، وكان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد .

وقد اختار خالد أطول الطرق واشدها صعوبة وابعدها عن تصور العدو ، لكى يضمن عنصر المفاجأة ولكى لا يتعرض لمعترض من اهل العمران على الطرق الاخرى الميسورة .

وكانت المعركة الأولى فى أجنادين ، والمعـركة الكبرى فى اليرموك ، وهى من أشهر الوقائع الفاصلة فى حروب العرب .

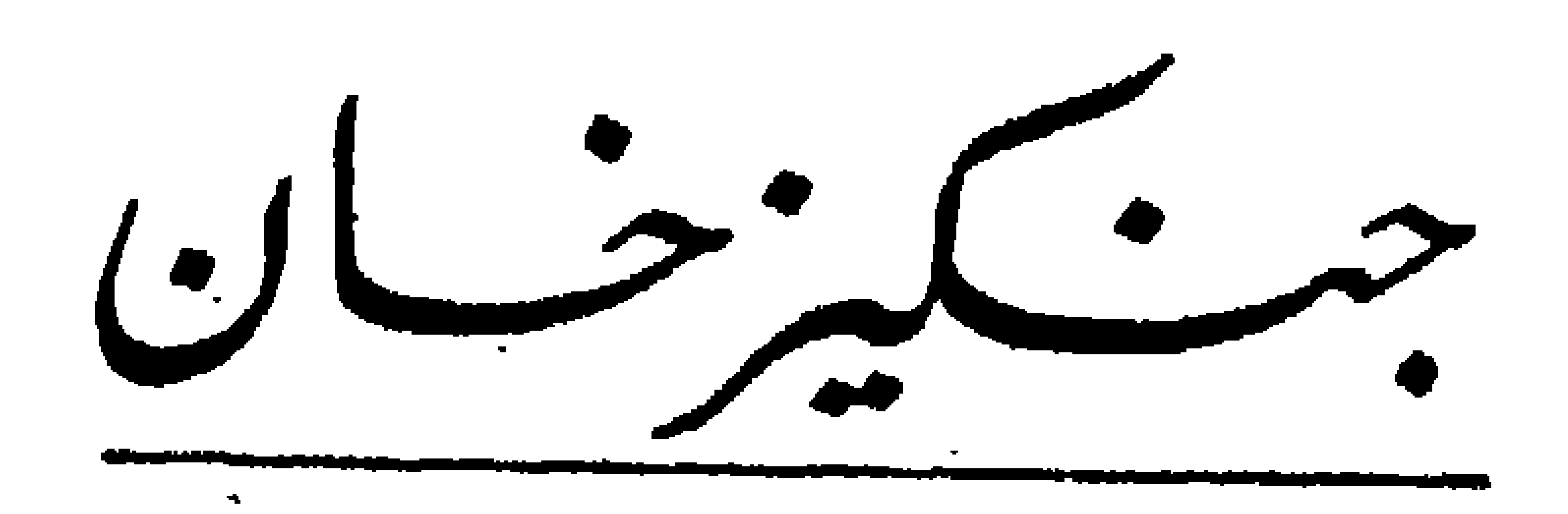
ولا ريب أن هذه المعارك كانت بين ندين يختلفان فى كثير ، ففى جانب كان رجال البادية البسطاء الشجعان الذين يقبلون على الموت وفى الجانب الآخر كان رجال القيصر الفارقون فى المناعم والملذات ، وقال خالد « هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى واخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعده » .

وهزمت الروم .

وبلغ خالد فى معركة اليرموك قمته العليا التى لا مرتقى بعدها لراق : قمع فتنة الردة ، وضرب دولة الأكاسرة ، ووحد قيادة المسلمين ، وهزم الرومان ، وكان صاحب دور تاريخى يضعه بين عظماء القادة .

وهو قائد لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال ، وهى الشجاعة والنشاط والجلد وحضور البديهة واليقظة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير .

وقد نفذ خالد مبادىء الحرب قبل ان يعرفها القادة فى عهود المدنية الحديثة . فاذا ذكرت أسـماء الاسكندر وهانيبال وقيصر ونابليون .. فارجعوا الى تاريخ العرب واذكروا مع هؤلاء .. أو قبل هؤلاء .. خالد بن الوليد .



الوحش الضارى الذى قاد وحوشا ضارية لم يعهد لها مثيل فى القوة والباس ..

الله فى سمائه ، وجنكيز فى الأرض .

ظل قوة الله .

خاقان التتار ، وعاهل جميع الشعوب .

وقفت أمام هذا الوصف العجيب الذى اختاره لنفسه القائد المغولى الأمى جنكيزخان فلم أجد له مثيلا فيما أطلق على القادة والاباطرة فى جميع الزمان ، وكلما تقدمت فى دراسة تاريخ هذا الجندى الرهيب ، رايت أصلا بلا صورة ، وشخصية بغير نظير ؛ ليس فقط لما انفرد به من شهرة داوية فى سفك الدماء ونهب الأعمار والقضاء على الأخضر واليابس ، ولكن ايضا لما أوتى من عبقرية عسكرية وميزات وصفات تضعه فى مصاف كبار القادة ؛ حتى قال نابليون :

لم يوفقني الله مثلما وفق جنكيزخان .

سفاح الشعوب

ولعل الصورة التي ارتسمت في أذهان القراء — من فعل سطور عابرة غير موثوق بصحتها ان هذا القائد الهمجي البدائي كان يعتمد على كثرة اعوانه المرتزقة المتعطشين للغذاء والدماء فراح ينتقل بهم من مجزرة الى مجزرة ليطعموا ويشبعوا ما في نفوسهم الحاقدة ، ويقتلوا ويسلبوا ويدمروا وفق شعارهم : اضرب وخرب .

ولكن الذي يلجأ للدراسة المستفيضة ويرجع الى المصادر العليمة والمراجع الثابتة التي أحاطت بعصر جنكيز خان وظروف الحياة وتأثيرات البيئة والطبيعة والوقت في الكشف عن سيطرته على قومه وقيادته لرجاله وتنظيمه لجيشه وتخطيطه لمعاركه وفهمه الطبيعي لمقتضيات الحرب ودرجه على مبادئها وأصولها .. يعلم أن جنكيزخان كان شخصية فذة وقائدا موهوبا وحاكما بارعا وقديرا أو فاتحا ، ورجل دولة ، وقد أثر عنه قوله :

ان من يقدر على حفظ نظام بيته يستطيع اقامة النظام في امبراطوريته ومن يستطيع قيادة عشرة رجال بطريقة صحيحة يمكن أن يقود عشرة آلاف رجل .

رب القوة والبطولة

نبت جنكيز في أرض التتار باقليم دولون يلدق بشرق آسيا ، وكان مولده سنة ١١٥٥ وأبوه من زعماء القبائل المسموعي الكلمة المطبوعين على الحرب والسلب والنهب فنشأ في معسكر الرجال المحاربين يرى الصفوف تلو الصفوف تندفع باشارة من قائدها وتسابق الريح في عدوانها وتغير على المدينة فتقتل رجالها وتسبي نساءها وتنزع خيراتها وتجعل عاليها سافلها .

ورأى القبائل تتنازع وتتحارب ، والعاقبة للأقوياء والرجال

يلفون ويدورون لكى يظفر الواحد بخصمه ، أو يخدع الحليف حليفه فيغدر به ويجهز عليه .

وكان من الأمور المألوفة ان يحدث القتل فى وضح النهار أو تتم الغزوة فجأة بلا سابق انذار . فغاية الفرد أو القبيلة هى قهر الخصوم ، ولا بأس أن يكون قهر الحلفاء أيضا ، أو تدمير أقرب الأقرباء .

فلا عجب ان رأينا جنكيز خان ملطخ اليد منزوع العاطفة ، ولو لم يفعل لقضى على نفسه فى بداية حياته ! فقتل أخاه وصرع عمه وشنق حلفاءه الغادرين وألقى فى الماء المغلى العاصين والمتمردين ، وأغار على القبائل فقتل وسبى وغنم ، وغزا المدائن فحرقها ولم يترك زرعا ولا ضرعا ، وبهذا حقق نداء بيئته ونال الظفر على خصومه وجيرانه ، وجعل لنفسه امبراطورية عظمى ، واسما خالدا بين عباقرة العالمين .

ولو كان جنكيز خان رجلا عاديا لفقد كل شىء بفقد والده ، اذ انفض عنه الرجال وادارت له القبائل ظهر المجن وصار مهددا هو وأسرته بالفناء . فهجر أرضه واختفى بأسرته فى مجاهل الجبال . ولكن قلبه كان مشغولا بالعلا وعقله يفكر فى الانتقام والسيطرة والسلطان ، فبارح مكمنه وراح يغير اغارات موفقة لا يجيدها الا الشجاع الجرىء ، وذاع أمر هذه الأحداث المثيرة وبدأ نجمه يلمع وعوده يشتد وأعوانه يتزايدون .

ولم يعد اسم « نيموجين » مناسبا للقائد الشاب ، فسمى نفسه جنكيز خان — اى مبعوث السماء — ووجد الامارة التى خلفها له أبوه بوكاى غير كافية لآماله واطماعه — فبسط نفوذه على سائر الرؤساء ، ولم تعجبه تسمية التتار فاختار لشعبه اسم المغول — اى الغزاة — واصبح هو الخاقان الأعظم فى عام ١٢٠٣ ، وهو فى سن الخمسين ، وقد نضجت عقليته واتسعت حيلته وتفتحت عبقريته وأخذ يحقق حلمه الكبير : قهر العالم .

وقد سئل ذات مرة عن تلقيبه برب القوة والبطولة فقال :

لقد هاجمني في صباي ستة رجال ، وكادوا يقضون على القضاء المبرم لولا أن حماني الاله من شرهم ورد كيدهم الى صدورهم ، ثم قضى سيفي قضاءه في رقابهم !

كتلة من الدم

كان التتار شعبا موزعا لاتجتمع قبائله على كلمة وان اجتمعت على صفاتها في الدمار والهمجية ، وكانت مضاربهم في صحراء (١) الجوبي ــ جنوب بحيرة بيقول ــ هي مسرح عمليات اعتداء وغزوات لا نهاية لها .

ففي تلك الفيافي الشاسعة في وسط وشرق آسيا نشأ التتار ــ من اصل الجنس التنجوسي ــ وهم أصل اهالي الصين وكوريا ومنشوريا وايران والهند وبعض بلدان آسيا الصغرى وشرق اوروبا .

واشهر ما عرف عن التتار التطاحن فيما بينهم على امتلاك المراعي والحيوان واغارتهم العنيفة وقتالهم الدموي الرهيب . وهذه كانت البيئة التي نشأ فيها جنكيزخان ، وقيل انه ولد في يده كتلة من الدم ، وبدأ طريقه الدموي بقتل اخيه غير الشقيق ــ بايكتار ــ لأنه اغتصب منه سمكة ! وشنق ابن عمه « شاموكا » بخيط رفيع من الحرير !

وكانت أولى معاركه الحاسمة الفاصلة : القضاء على قبيلة التايدجوت ، أولى القبائل التي تألبت عليه عند وفاة ابيه ، وكادت تقضي عليه ، وقد كانت أشد القبائل بأسا وأعزها جندا ، فلما

(١) حظيت المكتبة العربية بكتابين ضافيين عن جنكيزخان ؛ اولهما كتبه عن المراجع الثبت البكباشي أ.ح ثروت عكاشة ، والثاني ترجمته عن الأديب الصيني قايان ، السيدة صوفي عبد الله ، في مجموعة « كتب الهلال » .

طوى صفحتها دانت له الزعامة وصار صاحب الكلمة فى منطقة شمال الجوبى وأصبح فى استطاعته ان يبسط سلطانه وما شاءت له همته .. وقد كان يبرق فى فكره مشروع توحيد الجنس المغولى فى وسط آسيا وانشاء امبراطورية عظمى .

ولم تكن مهمة جنكيز هينة اذا نظرنا الى طبيعة المغول ولكن همته لم تعرف المستحيل فكان عليه أن يضم قبائل شديدة البأس مثل البورشيكون والتتر والبورتمور والقرايطة والركيت والتندرا وان يحكم كل آسيا الشرقية من صحراء الجوبى فى حدود منشوريا الى دولة الخطا غربا ، ثم شمالا الى سيبيريا .. وقد كشف عن خطته وواجه بها شعبه فقال :

لقد استقر رايى على ان ادعو أولئك الذين آلوا على انفسهم مشاركتى السراء والضراء ومقاسمتى حلو الحياة ومرها ، أولئك الذين لهم نقاء البللور ، عزمت على ان ادعوهم شعب المغول ، وان غاية ما اتمناه هو رفع شعبنا الى مرتبة السيادة فى العالم .

يحيـا السيف

استطاع تيموجين الشاب القوى الشجاع الذى يحفظ أسرته التى تهددت بالضياع عقب موت أبيه أن يظلها بسيفه ويحمى حماها ويستعيد شأنها فعاد اليها مجدها الغابر والتف حولها الأنصار ، ودوى صيت عاهلها الدموى فى جميع الأقطار .

فهو قد بدأ بدرء الخطر عن قبيلته ثم ثنى باخضاع القبائل المجاورة ، فلما تمكن من خصومه الاقربين وأمن مغبة المؤامرات والفتن ذهب يدور ببصره عبر هذه الحدود المتواضعة ، فقد كان يحلم بامبراطورية عظمى يجول فيها بعقله وسيفه .

وقد كانت لهذا القائد التترى الأمى فطـانة حربية قليلة النظير ، فهو رغم تشبعه بصفات قومه قد صقل نفسه وأعمل فكره وجاء بما لم يسبقه اليه أحد فى فنون الحرب ونظم الحكم

وهيأته فطانته لأن يقتحم ساحة التاريخ وينصب نفسه بين كبار القادة فى جميع الأزمان .

كان قائدا بالطبيعة تجمعت له صفات الجندية كاملة من شجاعة وهيبة ومقدرة على مواجهة المشكلات الى ذكاء وشدة وسرعة فى تحقيق الأهداف ، وكان حذرا ينام وهو محتضن سيفه وعلى مقربة من مربط الفرس ، كما كان يوصى اتباعه أن يفعلوا ، وكان له ولع بمشاهدة المعارك وخوضها وتدبر أسرارها وسبر أغوارها فتزايدت مع الأيام تجربته وصقلت معارفه ، ولم يجد فى طبعه ميلا الى الدعة والاستسلام أو الرغبة فى حياة الرغد والسلام ، وانما كانت حياة التقشف والاعتدال والمناورة وقهر الخصوم هى التى تستهويه ، وتملك عليه حواسه ، وقد قال :

انجماع سرور المرء فى دحر أعدائه وسوقهم امامه والاستيلاء على مايملكون .

وكان يرتدى ثيابا بسيطة فلا يميزه عن رجاله سوى قرط ثقيل من الذهب يتدلى من اذنه ، وحصانه الأدهم ، ورايته البيضاء التى جعلها عنوانا لسطوته وسلطانه ، وعليها ذيول تسعة وعول .

وقد وصفه احد اتباعه بأنه كان طويل القامة ، قوى البنية ، شديد الذكاء ، له جبهة عالية ، ولحية طويلة ناحلة حمراء كأنها شعلة من لهب ، وعينان صغيرتان صفراوان كعينى القطط تشعان بالصرامة والقسوة والكبرياء .

ولقد كان معتدلا فى عاداته فلم يعرف عنه الاسراف فى طعام أو ملاذ ، وقد اثر عنه قوله : « اياك .. اياك وشرب الخمر أكثر من ثلاث مرات ، فان استطعت فمرتين أو مرة ، وتحسن اذا لم تذق الخمر على الاطلاق » .

وكان ماهرا فى الفروسية والرماية الى حد بعيـد ، خبيرا بالرجال يعطف على المخلصين الجادين البواسـل ويشـجعهم ويتلطف معهم ويوزع عليهم مغانم الحرب ، ولكنه كان غادرا فظيعا لايعرف قلبه الرحمة اذا خدعه احد أو تآمرت عليه جماعة فيندفع الى الاقتصاص « كعامود متحرك من نار جهنم » .

ولو كان جنكيز خان رجلا همجيا معتمدا على القوة وحدها لما استطاع أن يجمع حوله قادة ممتازين ـ مثل سـابوتى الذى يعتبر من أعظم قواد التاريخ كله ـ فقد درج جنكيز على اصطفاء الرجال الأقوياء الأمناء وخاصة من الشبان الذين وثق من ولائهم وكفايتهم فجعلهم على رأس وحداته التى يعتمد عليها فى غزواته وفتوحه العظمى .

وقد أخذ جنكيز عن المغول عقيدتهم الحربية ـ افناء العدو ـ وحققها بأبشع الوسائل ، فكانت خطته الحربية دهم العدو بالحيلة والحكمة واتيان كل شىء يوصله الى الغرض ولو قلب البلدة الى مقبرة كبيرة .. وبعدها تفلح الأرض وينبت الحب وتنبعث الحياة من جديد .

وكان لا صبر له على الحرب ، فلم ينته من معركة حتى يفكر فى أخرى ، ويظل يبحث عن غريم ويسعى الى غزوات متتابعة ، فاذا بدت فى الأفق حرب جديدة هدأت أعصابه وصـاح فيمن حوله .

حسنا جدا . هاتو الى جوادى وسيفى ، فلينتحب العالم لكى يسعد جنكيز .. يحيا السيف .. تحيا الحرب !.

لاسلام بغير حرب :

« افطر بعدوك قبل أن يتغدى بك »

كان هذا أول درس تعلمه جنكيز خان عقب وفاة والده فقد انقض عليه جيرانه « التايدجوت » وكادوا يفتكون به ففر بأسرته

الى الجبال وكان يخرج فى حذر الى القنص ويعود بالغذاء ، وشرع فى عمل بعض غارات عاد منها بالخيل ، والرجال ، فان الرجال دائما يتبعون القوى ويقبلون على محالفته والعمل معه ، وقد راعهم ذلك النجم الثاقب الذى دوت شهرته فى الفيافى والقفار فأقبلوا عليه واستظلوا بنور قوته وعقليته .

وسعى الى التحالف مع قبيلة القرايطة الاشداء ، وكانت خطوة تدل على الحصافة وبعد النظر ، اذ ذهب اليهم فى ثياب القوى المقتدر ، فأقبلوا على محالفته . واشترك جنكيز مع عمه طغول خان ضد خصوم الطرفين ، فهذه معاهدة تحالف ودفاع مشترك جعلتهما يتعاونان فى بعض الغزوات التى أظهرت قيمة جنكيز وادارت الأذهان اليه فوجد فيه التتار جنديا باسلا وواضع خطط محنكا .

لم يكن فكره مشغولا بدفع الأعداء عنه فحسب ، بل كان ينظر الى توحيد القبائل جميعا تحت امارته وجعل الجميع أسرة واحدة وجيشا واحدا يأتمر بأمره . ومن ثم يستطيع أن يغزو به العالم المتحضر ويصبح سيدا كبيرا .. وفى هذا السبيل كان يعمل بالسياسة والقوة وقال « لقد علمنا كبارنا أن القلوب المتنافرة والعقول المختلفة لن تجتمع فى جسد واحد ، غير أنى عازم على تحقيق هذه الغاية بعد فرض سلطانى على جميع ما حولى » .

وقد اشترك جنكيز خان وعمه طغرل خان فى معاونة امبراطور الخطا ضد التتار فتم لهم النصر ، وظهرت فى هذه المعارك عبقرية جنكيز خان الذى منحه الامبراطور سريرا من الفضة مغطى بنسيج من الحرير الموشى بالذهب ، واطلق عليه لقب « القائد ضد الثوار » .

وظهرت المنافسة بين طغرل خان وجنكيز خان ، كان أولهما صاحب حول وطول ، فجاء الثانى ينازعه مكانته المرموقة . وحدث احتكاك بين الفريقين على صورة « حوادث الحدود » ، واخذ كل

فريق يأتمر بالآخر ، وكان للقرايطة السبق في الاستعداد والتعدى ، وبدأ زحفهم الكبير الذى لم يكن في استطاعة جنكيز أن يواجهه بقوته فراح يواجهه بحكمته وحيلته .

وقام جنكيز بأكبر عملية تمويه وخداع اذ اصدر أوامره بترك معسكراته على حالها - كأنها عامرة بالجند والسلاح - وانسحب في جنح الظلام انسحابا لم تفارقه مبادىء الوقاية والسلامة مدى تسعة اميال . وقسم رجاله الى قوة ساترة وأخرى ضاربة . وبينما كان شارعا في تنفيذ خطته كان القرايطة يدبرون له بليل ويتسللون في ستر الظلام الى معسكره ، وخيمته بالذات ، ولما ظنوا أنهم أدركوا غرضهم وأوشكوا على النيل منه فوجئوا بالخطة الماكرة وطارت نفوسهم شعاعا من هول ما رأوا من تمويه وتضليل لم يعرفوا ما وراءه .. فانطلقوا يقتفون الأثر ويضربون في الأرض بحثا عن غريمهم الخطر ، فاستقبلتهم طلائعه بحملات صادقة وبدأت المعركة بين مجموعتين غير متكافئتين في القوة ، فلم يتغلب العدد على الجسارة ولم تنتصر الأسلحة على العزائم ..* وأمر جنكيز خان احد اتباعه الشجعان - جولداز - فقام بعملية « النبلوغا » أى حركة الالتفاف حول مؤخرة العدو واحرز نصرا مؤزرا تحدثت به الأساطير .

* وقال وانج خان : لقد كنا نقاتل رجلا ما كان ينبغي أن نقاتله .

وجمع جنكيز خان مجلس الحرب - من زعماء القبائل والقادة - وعرض عليه الموقف ، وماكان من اعتداء القرايطة ، فاتخذ المجلس قرارا بتوليته قائدا لجميع قوات المغول ، وتسليمه صولجان الرئاسة ، فطلب اليهم أن يكونوا عند كلمتهم وأن يطيعوا كل أمر يصدر عنه وختم وعده ووعيده بقوله :

لقد انتويت المحافظة على أرض أسلافنا وتقاليدهم وسأجلب لكم رأس طغرل خان وولده .

الحرب خدعة :

قال القائد العالمى « سابوتاى » لزعيمه جنكيز خان :

« سادرا عنك خصمك كما يدرأ عنك اللباد لفح الريح » .

وانطلق الى معسكر الأعداء ، ممثلا انه هارب من قيد المغول الدموى ؛ وراح — فى معاقل القرايطة — يذيع الأخبار الكاذبة وينطق بالمعلومات المضللة عن قوة جنكيز ومحلات جنوده ومدى استعداده ، وأراد الخصوم أن يتكشفوا الحقيقة ويعلموا مبلغ صدق معلوماته فأرسلوه مع حملة من قواتهم نحو معسكرات المغول ، فوقعوا فى أسر جنكيز وقضى عليهم بينما اندفعت قواته نحو أراضى القرايطة فهزمتهم شر هزيمة .

وهنا خلا له الجو لتحقيق أطماعه ، فسارت جيوشه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأخذت امبراطوريته تتسع ونفوذه يمتد ، أو كما قال ماركوبولو : لقد شرع يفكر فى غزو بقية العالم !

واعلن شعب المغول ولاءه للعاهل الرهيب ، الذى ينحدر من سلالة الآلهة والبوجدو الذى يعطى الحكمة والسلطان .

سور الصين :

لم يقتنع جنكيز بما أحرز من نصر وفتوح يعجز عنها القادة الأشداءوالملوك ذوو الطموح ولكنه كا نيريد كل شىء ، كان لايعرف الحدود والقيود وانما يمد بصره ماشاءت له مطامعه فيرى مالا يراه غيره . ولقد سولت له عقليته الفذة ومقدرته الفائقة أن يكون سيد العالمين ودعته طباع قومه وعاداتهم الى المزيد من الفتح والتجوال والاسترسال ، وكان قد بلغ سور الصين العظيم الذى يحمى خلفه مملكة القطا ذات التمدين والخيرات ، فانفذ اليها بعض جواسيسه وكشافته يسيرون نحو الدفاعات ويتقصون أخبار الجند حتى تجمعت لدى سيدهم المعلومات اللازمة لمغامرته الجديدة . ثم تحركت طلائعه فكان على رأس المقدمة قادته

البواســـل موهولى ونويون ومايوناى .. على رأس ثلاثين الف فارس ، لكل فارس جوادين ، ثم تقدمت القوة الرئيسية من مائتى الف جندى ونيف ، قسمت الى جناحين كل منهما خمسين الفا ، وقلب مكون من مائة الف يكونون الحرس الخاص .

وقد فوجىء العدو بهذا الهجوم ـ الذى مهد له الطـــابور الخامس ـ فانهارت مراكز الدفاع وتراجعت الصفوف ، ومدت الهزيمة خطواتها بفعل الدعاية والاشاعات . ولكن روح الصين لم تهزم فقاتلوا ببسالة لامثيل لها للدفاع عن الامبراطور المقدس وانتهت الحملة بغير نتيجة وارتد عاهل المغول بسهم في ساقه .

وفى العام التالى قاد جنكيز خان حملة خطيرة مدمرة اجتثت كل ما على الأرض وانقضت على العدو كالصاعقة الماحقة ، وفر الامبراطور وولى عهده وعم البلاد الذعر والفوضى ، فاستسلمت للوحوش الضارية .

ندمر .. ثم نبذر الشعير :

وصـــلت امبراطورية جنكيز خان الى حـدود امبراطورية خوارزم الاسلامية ـ وكانت تمتد من العراق الى حدود الصين ، ومن شمال بحر قزوين الى الخليج الفـــارسى ـ وكانت الجيرة الجديدة تؤرق القوم . هنا حيث الدولة الراقدة فى العز والمجد القديمين ، وهناك حيث الدولة الفتية القائمة على الســـيوف والحراب ، وكان لا مندوحة من الحرب .

وبدأ الاحتكاك بقوافل التجار يبعث بها جنكيز الى بلاد غريمه تذهب بالبضائع والأفكار وتعود بالمال والأخبار . وتنبه أصــحاب الأمر فى خوارزم الى ذلك الخطر الزاحف فأخذوا فى الاستعداد ويبدو أنهم لم يقدروا المـــوقف على حقيقته ولم يحصـــلوا من المعلومات ما يجعلهم على حذر وحيطة ولهــذا جانبتهم الحـكمة وعاملوا رسل المغول باحتقار ، ووقعوا فى المحظور ..

وجمع جنكيز خان رجاله وأنبأهم بالصيد الجديد :

أتسمعون يارجالي الشجعان ، لقد قتل المسلمون رسولي وقضوا على أربعمائة وخمسين من رجاله ، وهم من خيرة قوادي وجنودي . فهل هذا يحتمل ؟

فصاح المغول من أسفل الجبل :

سر بنا اليهم أيها الخاقان . سنحرق مدنهم ونذبحهم جميعا .

وهكذا كان يفهمهم ويفهمونه .

هو يشير اليهم بما يصادف هوى من نفوسهم : الغزو والسلب .

وهم يتبعونه كظله . لأنه قائد شديد البأس عظيم الحكمة ، قادر على احراز النصر .

والجنود ـ كل الجنود ـ كما يقول المارشال مونتجمري : يحبون القائد الذي ينتصر .

وتجمع المراجع المختلفة على ان طريق جنكيز ، كان محفوفا بالمكاره مليئا بالاخطار بسبب وعورة المسالك وقسوة البرد وندرة الأطعمة ، مما لم يسبق لفاتح أن واجهه ، وما لم يكن لغير المغول أن يتحمله ، وبعد ذلك كله كان على جنكيز خان أن يواجه أربعة أمثال قوته ، في أرض عدوه .

وانتصر جنكيز خان ، وفر رؤساء خصومه ، جلالة السلطان علاء الدين محمد وولده القائد الشجاع جلال الدين ، ودالت دولة خوارزم العظمى ، وتربع جنكيز خان على العرش الذهبي .

ووصف أحدهم هذه الحملة الفظيعة بقوله عن المغول :

« جاءوا فخربوا وحرقوا وقتلوا ونهبوا .. ثم مضوا » .

وهكذا استمرت قوات جنكيز خان تفعل كلما تجولت شرقا وغربا .

وسأل جنكيز رجلا من أهل الحكمة :

هل يبقى اسمي خالدا بعد موتي ؟

فأجابه الحكيم :

يبقى الاسم ما بقى سكان .

عبقرية الحرب :

لم يكن بالمستطاع ـ فى مثل هذا الحيز المحدود ، وفى حديث من قادة عديدين ـ أن نكتب بالتفصيل عن حيـــاة جنكيز خان وحروبه ، فالقصد هو بحث عوامل التفوق فى القيادة وأسـباب النجاح الحربى التى حققت المجد والخلود لذلك المحارب البدائى الأمى ، والعجيب أن اسمه قد اقترن بالوحشية والفظاعة واعتبر رمزا للتقتيل والتدمير بلا حساب ، ولكن هذه « السمعة » لايمكن ولا يجب أن تخفى مزايا هذا القائد العبقرى وما كان له من براعة فى وضع الخطط وعزيمة فى تنفيذها فضلا عما أوتى من حكمة وبعد نظر كرجل حرب وسياسة وحكم .

وقد كتب عنه الجنرال الأمريكى ـ الذى اشتهر بقـــاهر اليابان ـ دوجلاس مكارثر ، فقال قولا قد ينـــدهش له القراء وخاصة ممن انطبع فى ذهنهم ما اشتهر عن جنكيز خان وقواته البدائية الهمجية .. قال :

(لو محيت جميع أخبار الحرب من صفحات التاريخ ماعدا أخبار جنكيز خان لبقى لرجال الحرب معين لاينضب من أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها ، ومهما تغيرت أسلحـة القتال فلابد من الرجوع الى الماضى ومطالعة التاريخ . ليحـذق الجندى فنون الحرب ومبادئها الأساسـية التى لاتتغير . ولن تجدها ممثلة بأوضح مما هى فى سيرة امبراطور المغول منـــذ سبعمائة عام) .

ويرى الكاتب الصينى فـ يان ـ حامل جائزة ستالين للسلم ان من الخطأ الشائع أن يقال ان جيش المغول كان جيشا من

الهمج ، يهاجم كما تهاجم قطعان الذئاب ، بلا نظام ، والحق أن جيشهم كان منظما تنظيمـــا يفوق غيره من الجيوش ، وكانت الخطط الحربية ترسم بحذق وذكاء ، فليست أمية جنكيز خان ورجاله بمانعة أنه كان عبقريا فى الحـــرب .. أن رجاله كانوا موهوبين فى القيادة وادارة الجيوش ، وقد أعانتهم على تحقيق التفوق العسكرى فى ذلك الحين طبيعة الطاعة والجلد والشجاعة، الى تخاذل أعدائهم وانحلال الملوك من حولهم لأنهم من أعقـــاب السلالات التى أفسدها الترف والغرور وجو الملق والضعف الذى انغمسوا فيه .

التنظيم والتدريب .. والضبط والربط :

لقد خلق جنكيز خان جيشا من العدم . لقد وجد نفســـه يوما بلا رجال ، اذ انفض عنه الجميع عند مصرع أبيه . فـراح يجاهد وحده لحماية أسرته ثم بدأ يناضل لاشباع ما فى نفســه من اقدام وطموح فاشتهر أمر مغامراته وأعجب الرجال بشجاعته، فبدأوا ينضمون اليه . وهو يقرب اليه كل قوى أمين ، حتى خرج بجيش صغير الى مغامرات أكثر اتساعا وابعد أغراضا .

وأخذ جيشه يتزايد حتى أصبح أعظم قوة فى زمانه بفضل تنظيمه وتدريبه وخططه ووسائل مواصلاته وتموينه ، ففتح به ذلك العالم مستخدما ثلاثة مفاتيح :

التنظيم ــ التدريب ــ الشدة .

وقد عرف جنكيز خان كيف ينظم قواته فى جماعات وسرايا وكتائب وفرق وجعل كل محارب يعرف مكانه الذى وضعته فيه القيادة فيبدى فيه خير ما عنده من اندفاع وبسالة ، وقال فى ذلك :

(تستمر قواعد تنظيم جنود الجيش الى عشرات ومئـــات وألوف وعشرات الألوف كما هى نافذة المفعــول حيث أن هـــذه القواعد تساعد على تعبئة الجيش فى فترة وجيزة) .

وعرف أن جنكيز خان كان يدرب قواته ـ فى فترات الفراغ من الحرب ـ فيذهب بها الى ساحات بعيدة حيث تتلقى فنـون الهجوم وأساليب التعاون ووسائل الاحداق بالعدو ، ويمرنهـم على القتال فى السهول والجبال والوديان والأنهار ، فهو لم يترك قواته تنعم بالراحة التى تذهب بالعزيمة وتضيع الحماسة وانما كان يرى ضرورة التدريب الجيد لكى يصل الى النصر المؤزر .

كما عرف أنه كان شديد العناية بالضـبط والربط ، فهو يكافىء بشجاعةرجاله الأمناء ويقضي بفظاعةعلى الخونة والضعاف . كان لايقبل أى هوادة فى معاملة رجاله، وكانت هذه الشدةمصدر قوته ، كما كانت مصدر شهرته ، فتزعزعت لها قلوب الأعداء قبل اللقاء وسقطت الحصون والقلاع من غير دفاع .

وقد وضع جنكيزخان أوامر مستديمة لقواته فى تلك الأحكام المجمعة المسماه « بالياسة » فحدد فيها نظام التعبئة . وتنظيم الجيش ، ومسائل التموين والاعاشة والجرائم والعقوبات، والعمل فى أراضى العدو ، والتصرف فى الغنائم . وهكذا حقق من تلقاء نفسه ، وبوحى تفكيره الخاص ، جماع النظم العسكرية الحديثة قبل سبعمائة عام .

وقد جاء فى وصف أحدهم لجيش جنكيزخان :

انهم يطعمون لحم البشر ولهم جماجم من نحاس وأسـنان من صخر وقلوب من فولاذ ، تقذف أفـواههم الحمم ، وتشرب خيلهم الندى ، لهم اجنحة كالطير ، وتتغـذى خلال المعركة على لحم البشر .

القائد العظيم :

كان لجنكيز خان جيش هائل . وقادة من الصف الأول :

سابوتى الحكيم ، وموهولى المحنك ، وشيبه نويون النازى المندفع ، وبورشو الأمين . ولكل منهم فى ساحات القتال صفحات

مجد وبطولة ، حتى لقد وضع المؤرخ الحربى ليدل هارت اسم سابوتى اعظم القادة فى التاريخ كله .

وكان جنكيز يشجع قواده ويفخر بهم ، ويجزل لهم فى العطاء . ويوليهم رعايته وحسن توجيهه ، فكان اذا بعث احدهم فى غزوة بصره بما سوف يلقاه فى طريقه ونبهه الى مايجب عمله فى مواجهة كل موقف ، فقال لسابوتاى :

(انك سوف تمر حتما فى طريقك الى هدفك بين ممرات الجبال الشاهقة وتعبر الأنهار الكبيرة ، ولما كانت الشقة طويلة فاقتصد في خيالتك ، وفر من مئونتك . انك سوف تصادف خيرا كثيرا فى طريقك فلا تأذن لجنودك بالصيد الا بقصد الاستعاضة عما نقص من مئونتك حتى لاتصبح خيولك مجهدة قبل أن تلقى العدو . وتأكد ان الشكائم والأعنة لاتؤذى أفواه الخيل . واذا تجرأ أحد على مخالفتك فابعث به الى ان كنت أعرفه وعاقبه بنفسك أن كنت لا اعرفه) .

وقد أطرى جنكيز قائده الداهية سابوتى « والمعصوم من الخطأ » ونوه بمعاركه المظفرة فى ايران وجورجيا والقوقاز وجنوب روسيا وبلغاريا بين صيف ١٢٢٠ وشتاء ١٢٢٢ وكان يقول :

(لقد كان سابوتاى ينام مدرعا وقد فاز فى معارك دامية ، وخاطر بحياته من أجل بيتنا ، ونحن عنه راضون) .

أما رأى جنكيز خان فى القائد الجيد فهو :

القائد الذى يقطع المسافات الطوال بلا تعب ولا جوع ولا عطش ، ولا يعانى رجاله التعب والجوع والعطش ، فالقائد الناجح هو الذى يضع أمامه هذه المشاكل ويجعل مدى احتمال الطاقة البشرية نصب عينيه حتى يكون بوسعه ادراك متاعب جنده. كما أنه يريح جنده وخيله كلما وجد الى ذلك سبيلا .

مبادىء الحرب :

المحافظة على الغرض ، الحشد ، الاقتصاد فى القوة ، الوقاية التعاون ، المفاجأة ، خفة الحركة ، والقتال الهجومى .. لقد عمل بها جميعا جنكيز خان ، قبل أن تجمع هكذا ويعرفها العالم المتمدين باسم مبادىء الحرب .

كان يحدد هدفه بدقة ولا يجعل شخصا يحوله عنه ، وكانت مطامعه الكبرى لاتجعله ينزلق الى غرض لم يقدره جيدا ، فاذا اتجه الى قتال أعد له عدته ودرس تفاصيله ووضع خطة محكمة ومضى اليه مهما لاقى فى طريقه من صعاب .

ولم يكن جيش جنكيز أكثر عددا من خصومه ، بل كثيرا ما حارب عدوا يبلغ ضعفى أو أربعة أمثال جيشه ، ولكنه فى الساعة والمكان الحاسمين يكون قد حشد أعظم قوة لتوجيه الضربة الأخيرة .

وكان يدفع الطلائع فى مقدمة جيشه تتقدمها الكشافة حتى يؤمن القوة الأساسية ويمنع عنها المفاجأة . ففي عملياته الدفاعية القليلة كان يترك قوات ساترة تتلقى الصدمة الأولى وتظل تناوش العدو حتى تستطيع القوة الأساسية أن تستعد وتنفذ خطتها ، وفى تقدمه نحو مواقع العدو كان يبعث بالمقدمة تسبر الغور وتحصل على المعلومات حتى تمهد للهجوم الكبير .

وكان ينظم جيشه بين مقدمة ومؤخرة وقلب وأجنحة ويحرك الجميع فى خطة واحدة متعاونة تتقدم المجموعة فى حماية الأخرى ، وتناور الوحدة لتحجب انظار العدو عن هجوم الوحدة الأخرى .

أما المفاجأة فكانت سلاحه المفضل ، كان يبعث جواسيسه فى مناطق العدو يدرسون أحوال الأهالى ويسبرون غور العدو ، وهم يمثلون التجار ويجذبون اليهم عملاء ذوى مناصب تبعدهم

عن الشبهات ، فاستخدم الجاسوسية على أوسع نطاق ، وأنشا الطابور الخامس قبل أن يفكر فيه الجنرال فرانكو بمئات السنين،

ويظل دولاب المخابرات يعمل حتى يصل الى جميع المعلومات اللازمة ثم يفاجيء العدو من حيث لايحتسب فيقضي فيه القضاء المبرم بفعل المفاجأة وقوة الضربة .

ومن أساليبه المثلى فى انتزاع المعلومات من مصادرها واستقصاء الأخبار على حقيقتها انه كان يبعث بعض رجاله يدعون انهم هاربون من ظلمه وعسفه مستجيرين برحمة خصومه ، وهناك يواصلون جمع المعلومات والأخبار ، ويدلون فى الوقت نفسه بمعلومات خاطئة مضللة فيقول لرجله :

« لقد أحسنت صنعا أن غررت بالعدو ، وأفهمته أن جيشنا ليس كفؤا لجيشه » .

جواسيس جنكيز خان .. في كل مكان :

كانت المفاجأة نصف المعركة وهذا يوضح أسباب اهتمام القائد المغولى الفطن بالجاسوسية والطابور الخامس والكشافة . فكان الفارس من فرسانه يقطع ٥٠٠ ميل فى نهار وليلة . وكانت بعض الأخبار تصله بانتظام وسرعة وسرية مطلقة عبر عشرة آلاف ميل .

كما كان جنكيز معنيا بالمعنويات ، فكان يبث الحماسة فى جنده ويبعث الهزيمة فى خصومه فيقوض روحهم المعنوية وقد بلغ فى ذلك نجاحا لامعا حتى قيل ان جنكيز خان اذا أصدر امرا على حدود الصين فان أسعار السمك تنخفض فى انجلترا ، ويباع الخمسون منها بشلن واحد ..!؟

والذى يقدر أثر المفاجأة لابد أنه يعمل لوقاية قواته منها فكان جنكيز فطنا اذ منع حصول العدو على أية معلومات الا اذا كانت مضللة ، وكان يقضي قضاء مبرما على الجواسيس والخونة ودعاة التردد والهزيمة ، فاذا تحرك لقتال اخفى كل شيء عن

تحركاته حتى لايعرف اتجاهه وخطته غير المقربين الموثوق باخلاصهم ، وكان خلال حملاته يفضل الطريق الأكثر صعوبة ، ويختار السير في الشمس المحرقة أو الليل البهيم كما كان يحرم اقامة الخيام ، فاذا كانت وقفة للراحة جعل نوم الفارس الى جانب حصانه وعنانه في يده تحوطا من المفاجأة وتحفزا لمتابعة السير .

٣ : ١

وكان جنكيز خان لايبلغ مبلغ عدوه في الأفراد أو الأسلحة ، وانما كان يبزه بجنود أقوى عزيمة وأصلب عودا ، حتى قيل انه لو بعث عشرة من رجاله لمواجهة الف رجل لانطلقوا كالليوث الجائعة ليظفروا بأعدائهم .. لأن هذه هي ارادة الخاقان الأعظم .

وقد كان يحدث رجاله بنتيجة المعركة قبل وقوعها ، مما يقوي معنوياتهم ويزيدهم ثقة في عاهلهم وفي انفسهم ، فيقول :

« ان أمامنا أفراحا كثيرة نحييها في بلاد خوارزم ، واني لأرى رؤيا العين ديارهم وقد انقلبت حقولا ترعى فيها خيلنا ، وأرى رجالهم يفرون من رجالنا رعبا وقد قتلهم الخوف قبل ان يقضي فيهم السيف » .

وكان جنكيز خان يعيش وسط جنوده ، فاذا أزفت ساعة الحرج وجدوه بين ظهرانيهم يقاسي مثلما يقاسون ، فيجعلهم ذلك أكثر اندفاعا واستبسالا ، فكانوا لايعرفون الراحة ولا يطيقونها ، بل يستمرون في تقدمهم عدوا بتلك الخطوات السريعة المتلاحقة المسماة « خطوات الذئب » .

وقد حدث يوما أن حاوره بعض خصومه في مفاوضات التسليم ، بقصد ايهامه أن حصونهم مانعتهم من امره : فقال :

انما تقاس الأسوار ومناعتها بقوة قلوب المدافعين عنهـــا ، ومقدار شجاعتهم ، فلا منعة للطوب اذا وهنت القلوب » .

وبعد ذلك بمئات السنين ، قال نابليون : ان نسسبة القوة المعنوية الى القوة المادية ١:٣ .

الحرب هي الهجوم :

ان تاريخ حروب جنكيز خان هو دراسة تفصيلية لعدة عمليات هجومية ، فاذااستثنينياموقفين ، قام في أولهما بعمليةانسحاب ذات خداع وتمويه ، وفي ثانيهما بدفاع مؤقت أعقبه الهجـــوم فان عملياته كانت تعرضية ، وكان يرى أن الغلبة بنت الهجوم ، وان الافطار بالعدو خير من الغداء به .

وقد اشتهرت عملياته بالهجوم العنيف الذى يجتاح كل شيء ، على غرار الحرب الخاطفة الحديثة ، ومن ذلك هجومه على بخارى الذى جاء وصفه في بعض المراجع : (ان القوم خرجوا ليروا ذلك العدو الداهم الذى فاجأهم فى عقر دارهم فرأوا منظرا عجبا .. رأوا خيلا قصيرة القوائم سهلة الحركة فى عصبية ظاهرة حتى لتشبه فى عدوها الخنازير البرية اذا طاردتها كلاب الصـــيد .. انهم جند يأجوج ومأجوج .

وما أسرع ما املات شوارع المدينة بألوان من خيل التتار ، وفى نظام محكم جعلت طوابيرهم تجوب المدينة وتتجه كتــــائب منها لاحتلال المعالم المهمة ، فلما تم للمغول احتلال جميع مرافق المدينة دخلها فيلق جميع خيوله بيضاء كالثلج ، وفى وسط هذه الفرقة المنتقاة ظهر للناس عاهل الشرق كأنه عامود متحرك من نار جهنم) .

رجل سيف .. ورجل حكم

والى جانب انه كان من رجال السيف المشهورين الخالدين فى جميع الأزمان ، فان جنكيز خان كان حاكما سياسيا فذا قاد

شعبا ضخما وحكم املاكا شاسعه وساس أمور أقوام مختلفة طبائعهم وعاداتهم ، فاذا كان كقائد عظيم نجح فى تنظيم جيشه وتدريبه ، فانه كحاكم فطن قد بلغ أعظم مراتب التوفيق فيماصنعه لشعوبه من نظم وقوانين وشرائع .

فهذا الجندى الأمى الذى أنشأ جيشا رهيبا ثم أقام امبراطورية عظمى كان مفكرا حصيفا وحاكما بصيرا ، وقد ترك أثرا خالدا من النظم والأحكام ، وهو المسمى « الياسة » الذى لم يترك ناحية من نواحى الجندية أو النواحى السياسية لم يضع لها نظما دقيقة وأحكاما منصفة .

وقد بدأ مجموعة قوانين الياسة بقوله : الله واحد خالق السموات والأرض ، مانح الخير والشر ، والغنى والفقر ، والعسر واليسر ، واهب الحياة والموت يفعل مايشاء .

وفى الياسة كثير من الأحكام التى تصلح لزمننا هذا وفيها توجيهات وارشادات ، ونظم تصلح لأرقى الشعوب وأعظم الأمم .

اما بعد .. فهل كان جنكيز خان جنديا همجيا افاقا .. أم كان قائدا عظيما وامبراطورا أعظم ؟

دوق مارلبورو

ان مارلبورو هو اعظم قائد انجبته انجلترا وقد كان يملك الصفات التي تجعله أعظم القـادة في جميع العصور .

مارشال ويفل

كان جون تشرشل ـ المشهور باسم دوق مارلبورو ـ أحد القادة البريطانيين الكبار بل كان قائدا عالميا لايقف في صفه غير افراد قلائل في جميع الأزمان ، ويعتبره المارشال ويفل « أعظم قائد في التاريخ » .

قال عنه مؤلف كتاب « العظماء المائة » انه لم يهاجم حصنا الا فتحه ، ولم يخض معركة الا كسبها ، ولم يبلغ مبلغ فطانته الحربية غير شجاعته الهادئة وعمق تفهمه لأحداث عصره .

كان جنديا وسياسيا ، ومثلما استطاع توجيه جنوده في حومة الوغى فخورين بقيادته استطاع ان يعامل حلفاءه بفطانة

وكياسة فاستظلوا بآرائه وسياسته ، وانه كان عظيما بين بنى وطنه وفى بيته أيضا ، فكان أبا وزوجا ، وصديقا يخلب الألبـاب .. وكان يعامل جنوده بتشجيع واعجاب فائقين ، وكان ـ بعد المعركة ـ يذهب يتفقد الجرحى من رجاله ومن أعدائه ، ويشملهم برعاية وعطف سابقين .

وهكذا كان نموذجا للقائد الأصيل والانسان النبيل .

وكان فولتير يعجب بشجاعته الهادئة وسط الاخطار الماحقة وهدوئه النفسانى فى غمرة الويلات .

جيش الملكة :

فى صبيحة ٢١ اغسطس ١٧٠٤ كان احد الفرسان يجتاز شوارع لندن على صهوة جواده لم ينزل عنه منذ أيام ، اذ كان قادما من ميدان القتال ميمما شطر قصر سان جيمس وما أن بلغه حتى ترجل وصعد سلالم القصر قفزا لكى يضع فى يد « سـارة تشرشل » دوقة مارلبورو الرسالة الآتية :

(١٣ أغسطس سنة ١٧٠٤)

ليس لدى وقت لأقول لك اكثر من أن ترفعى تحياتى للملكة وتحيطيها بان جيشها احرز نصرا مجيدا .. ان « المسنيو تالار » واثنين آخرين من الجنرالات فى يدى الآن . وأنا بسبيل صيد الآخرين .

ان حامل هذه الرسالة ، ياورى كولونيل بارك سيبلغ الملكة ما جرى .. وسأوافيها بعد يوم أو يومين بأكثر من ذلك واهم .

(مارلبورو)

وكانت هذه السطور القليلة تحمل الى انجلترا خبر اعظم انتصار أحرزته قواتها منذ القرون الوسطى .

كما كانت تحمل الى العالم امر جندى كبير بلغ أعلى ذرى العبقرية العسكرية ، فان معركة « بلانهيم » تعتبر من فواصل معارك التاريخ ، وقد دوت صعقاتها ـ على حد قول « اليسن » ـ في انحاء « أوربا وهدمت صرح القوة الذى كان لويس الرابع عشر يتمتع فيه .

الجنتلمان الانجليزى :

ولد جون تشرشل فى مايو سنة ١٦٥٠ ودرس في سان بول وبدأ أول عهده بالجندية فى « طنجة » ولكن شهرته العسكرية قد سبقتها صفاته المحبوبة حتى كان الفرنسيون يطلقون عليه اسم « الجنتلمان الانجليزى » وقد التحق بحرس القصر وخدم فى ميدان القتال وهو برتبة اليوزباشى ، وكان ذلك تحت قيادة دوق مونموث فى فرنسا ، وبزغ نجمه فى وقعة فتح مدينة تميجين وفى حصار مستر يخت سنة ١٦٧٣ وكانت شجاعته موضع ثناء لويس الرابع عشر ، وقد قدمه دوق مونموث الى الملك شارل الثانى بقوله : « ان حياتى مدينة لشجاعته » .

زوجة من ذهب :

وعند عودته من الميدان الى الوطن والقصر وجد ضيفا جديدا دفعته اليه المقادير الآنسة سارة جننجز ، فتحابا وتزوجا ، فلما أشرق نجمه عرف أنها كانت خير دافع له الى العلا ، كان جمالها ملهما وخلقها هاديا حتى لقد وصفها الروائيون بأنها « قطعة من الذهب تشرق عليه من غبار المعارك وضباب الحرب » وكان فى

أشق أدوار القتال يكتب اليها كلمات الحب والهيام ، فيقول : سأنتصر حالا لأنى فى شوق الى نظرة منك .

وقد وصل تشرشل الى رتبة القائمقام وصار ياورا للملك جيمس الثانى : بينما وصلت زوجته الى وظيفة الوصيفة فى القصر ، وسيطر كل منهما على جهة اختصاصه واستمر نفوذه يقوى فى دوائر الجيش ، ونفوذ زوجته فى دوائر القصر ، ورقى فى عام ١٦٨٨ الى رتبة الجنرال وعين فى عام ١٧٠٢ قائدا عاما للقوات المتحالفة ضد لويس الرابع عشر ملك فرنسا أو « الملك الشمس » الذى كان قد انتزع ميزان القوة فى أوربا . واعلن انه هو الدولة ، وأنه لاتوجد جدود بين فرنسا وأسبانيا .. فجبال البرانس لم تعد ذات موضوع .

فرنسا وبريطانيا :

كانت معركة بلنهايم من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، فقد كانت معركة نضال من أجل المبادىء ، ومن أجل التوازن الدولى ، ثم أن نتائجها كانت بالغة الأثر فى تغيير الأوضاع اذ حسرت النفوذ الفرنسى عن دول أوروبا .

كان لويس الرابع عشر قد بلغ بفرنسا غاية القوة فوجد رقعتها صغيرة بالنسبة له ، وهو الذى كان يقول : « أنا الدولة » فمد بصره الى أنحاء أوربا يتطلب السيطرة عليها ، وكانت فرنسا أقوى الدول ماليا وحربيا واداريا ومعنويا ، وساعد على تحقيق مطامعه أن دول أوربا كانت تعانى مشكلات عديدة ، فاسبانيا كانت فى طور تقهقر بعد حربها مع العرب وعلى أثر ما تسلط على أداتها من عوامل الفساد والتعصب ، والمانيا كانت تتنازعها عوامل الانقسام والضعف من جراء الحروب العديدة التى خاضتها ،

وانجلترا مغلولة اليد بمشاكلها العديدة وخاصة بعد ثورة الشعب على الملك شارل الأول عام ١٦٤٨ وحكم كرمويل الذى كان لويس يخاطبه بنداء « سيدى الوالد » ، ثم ضياع النظام الجمهورى وعودة النظام الملكى .

ولما انتهى عرش انجلترا الى وليم اورانج وزوجته « حنا » .ات الحال تستقر والمشاكل تحل . واستدارت بريطانيا تنظر الى اوربا وتناقش فرنسا الحساب .

وكانت انجلترا قد خلعت ملكها جيمس الثانى ودعت وليم اورانج زوج ابنته لتولى العرش ، فهرب جيمس الى فرنسا ولقى تأييدا من لويس الرابع عشر ، وكان ذلك الحادث شرارة العداء بين انجلترا وفرنسا .

وحدث بعد ذلك أن توفى ملك اسبانيا وكان قد أوصى باملاك التاج الاسبانى لفيليب دوق انجو ــ حفيد أخته زوجة لويس الرابع عشر ــ فذهب الملك الجديد الى عاصمة ملكه مدريد . وكان فى وداعه لويس الذى قال : « لا وجود بعد اليوم لجبال البرانس » ، اى أن فرنسا واسبانيا صارا بلدا واحدا .

وقد اثار هذا الوضع ثائرة ليوبولد امبراطور المانيا فتحالف مع انجلترا ضد فرنسا وانضمت معهما هولندا ثم دنمرك .. وكان مارلبورو الضمان الوحيد لفوز المحالفة ، فعرضت الملكة على الحلفاء تعيينه قائدا عاما فوافقوا واصبح مارلبورو مبعوث العناية لقهر لويس الرابع عشر .

سر تقدم الانجليز :

أعلنت الحرب بين الحلفاء وفرنسا يوم ٤ مايو سنة ١٧٠٣ ودارت رحاها فى الفلاندر واقاليم الرين العليا وشمال ايطاليا ، واستطاعت جيوش فرنسا أن تحمل على قوات المانيا حملة شعواء

قطعت أوصالها ثم احدقت بجيوش الحلفاء فى أعالى الراين ، وفي الوقت الذى ثارت فيه هنجاريا على المانيا ، فساءت الأمور فى معسكر الحلفاء الى حد بعيد .

واصدر لويس الرابع عشر أوامر حربية — قيل أن نابليون بونابرت لم يكن يجرؤ على اصدار مثيلاتها — وكانت تقضي بالتزام قوات من الجيش الفرنسي الدفاع فى هولندا ، مستندة الى حصونها المنيعة ، بينما تشغل قوات أخرى الخط بين هولندا وبلفاريا .. هذا على أن تتقدم القوات الفرنسية الرئيسية من ايطاليا الى النمسا بطريق اللورين وتزحف على فينا ، وبذلك يضطر امبراطور المانيا الى التسليم .

هذه هى الخطة الباهرة التى كانت تتضمن القضاء على الحلفاء ، وكان مارلبورو كالشهاب الساطع الذى انقض على تلك الخطة فدمرها .. فقد فطن الى أهداف عدوه الماكر وأدرك ما فى خططه من دقة وتمويه ، وقدر أن المعركة الفاصلة لن تكون فى أرض فرنسا .. بل فى النمسا ، فكان عليه أن يقابل تلك الخطة البارعة باخرى أبرع منها فيضيع على الملك الشمس فرصته ويدفع بشمسه الى المغيب .

ولم تكن الخطة الحربية وحدها هى ما يشغل مارلبورو بل كان أهم منها المحافظة على معنويات الحلفاء وروابطهم . وهى مهمة غير يسيرة وخاصة وهم مجموعة من الضعاف ازاء قوة متفوقة . ولهذا شهد له خصمه بولنيبروك ، فقال : « ان مارلبورو أحرز نفوذا أقوى من نفوذ التاج وذلك عن جدارة ومقدرة ، فانه بفضله بقيت المحالفة وتوثقت وتغلبت على خصمها العنيد .. ان مارلبورو أعظم القادة الذين انجبتهم انجلترا » .

وبدأ النزال ، وكان مارلبورو هادىء الروع رابط الجأش ، ولو ثارت البراكين . وساعدته هذه الصفات التى يعتبرها فولتير سر تفوق الانجليز ومصدر قوة انجلترا وسيادتها فى الدنيا .

المعركة الاستراتيجية :

نظر مارلبورو فى خريطة أوروبا وأدرك خطر المسئولية التي يحملها ، فاذا هو لم يضرب ضربته فى الوقت والمكان المناسبين فسوف يكون مآل خريطة أوروبا أن تطوى فى درج مكتب لويس الرابع عشر .. عدة سنوات .

وكان الفرنسيون ينتظرون ان يشتبك الانجليز معهم فى الفلاندر ، ولكن القوات المتحالفة تحركت تحت قيادة مارلبورو بعيدا عن تلك الساحة ، وانطلقت فى وادى الدانوب والقيادة الفرنسية فى حيرة من أمر تلك التحركات ، ثم عبر مالبورو الدانوب وانضم الى الجيش الألمانى تجاه القوات الفرنسية والبافارية المقيمة بين بلانهيم ولوتزنجين .

فهو لم يقبل المعركة التى استعد لها لويس ، بل ذهب الى المعركة التى لم يستعد لها ، وهنا كانت المفاجأة .

ويقول المارشال ويفل أن براعة مارلبورو فى تلك العملية ليست بذات نظير ، فاذا كان هناك من يدرك كيف كسب معركة بلانهيم فان كثيرين يقفون مشدوهين أمام التدابير الادارية التى جعلت السير الى بلانهيم ممكنا .. فقد كانت معركة خطط وتقديرات واستراتيجية وتكتيك وشئون ادارية .. وقد وفق فيها جميعا .

لقد أحس مارلبورو بالخطر فى فينا وقرر الأسراع لمساعدة البرنس أوجين واعلن انه سيهاجم فرنسا على نهر الموزل ، فلما

وصل الى كوبنز استدار فجأة واتجه الى مينز ثم تحرك جنوبا بشرق الى الدانوب وواجه القوات الفرنسية المتحفزة تحت قيادة المارشال تيلار .

بلانهيم الفاصلة :

كان ميدان المعركة على ضفتي نهر بنيسال بين لوتزنجين وبلانهيم وكان للجيش الفرنسى التفوق العددى فى المشاه (٦٠ الفا مقابل ٥٤ الفا) وفى المدفعية (٦٠ مقابل ٥٢) ووقف المارشال تيلار على راس الجيش الفرنسى فى جبهة بلانهيم والمارشال مرسين فى جبهة لوتزنجين وبينهما قوات بقيادةبرنس مكسيمان . وفى الجبهة المقابلة كان أوجين يواجه مرسين ، ومالبورو يواجه تيلار مكسيماليان .

بدات المعركة يوم ١٣ اغسطس سنة ١٧٠٤ بهجوم مالبورو فى قلب القوات الفرنسية ـ ففصلها . فاضطر البافاريون الى الانسحاب غربا فاسرع خلفهم البرنس أوجين واستمر فى ابعادهم وبذلك ضاع الأمل فى الضغط على المانيا ، وتم انقاذ فينا .

وقد اختار مارلبورو اضعف نقطة من خط العدو وقصد ايضا فصل القوات فلما نجح فى الاختراق دار بالجناحين فسحقهما بعد معارك هائلة ووقع كثير من القوات الفرنسية فى الاسر ودخل الحلفاء الم ، ولاندو ، وترابياخ . وابدى مارلبورو فى هذه المعركة من الشجاعة والفطانة ما احله فى مصاف كبار القادة وجعلت منه بلانهيم بطلا شهيرا .

هذا هو الجندى الدبلوماسى الذى يعتبره ويفل أعظم قائد فى التاريخ »

جورج وشنطن

الأول في الحرب ، والأول في السلم ، والأول في قلوب مواطنيه

يعتبر الأمريكيون جورج وشنطن أبا لهم ، فهو قائد الجيش الأمريكي الى النصر فى حرب الاستقلال وهو اول رئيس للولايات المتحدة ارسى اساس استقلالها ووحدتها ووضع دعائم المركز العظيم الذى أحرزته الولايات المتحدة فى العالم .

كان وشنطن رجل حرب وسياسة ، يقرن الى مواهبه العسكرية خصائص السياسى الحصيف ، وقد نجح فى المعركتين معا ، فاعتبره العسكريون أعظم قواد أمريكا الذين قادوا بلادهم الى الفوز فى معمعان الحرب . واعتبره السياسيون أحد ثلاثة كانوا أعظم قطبان البيت الأبيض .

ولعل اقيم ما فى وشنطن أنه كجندى لم يختط طريق الحرب للشهرة او لشهوة الغزو وانما كانت دوافعه دائما « الدفاع عن الوطن » وانه كسياسى لم يعمل لنفسه وانما عمل لوطنه . فلما

استقرت الأمور وانتظمت الأوضاع السياسية رفض الموافقة على تجديد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة للمرة الثالثة .

لقد كان جورج وشنطن مزارعا ناجحا وكان همه الأول تحسين انتاج مزارعه وتنمية ثمارها ، وكان قبل أن يولى الزراعة كل اهتمامه ، جنديا ومساحا على الحدود ولكن كان محبا للسلم محافظا شريفا مستقيما ثم صار قائد الجيش الأمريكى مدى سبع سنوات بغير أجر كما كان الركن الذى اعتمد عليه الشعب حين حلت به الكوارث وأحاط به أعداء ناقمون .

الي الحــرب :

وقد نفض يده من الزراعة على كره منه عنـــدما دوى نفير الحرب ونهض من فوره يحارب بعزيمة صادقة ويشارك جنوده مهلهلى الثياب حفاة الأقدام ، فيما عانوه من البرد والجوع والويلات فاذا انتهت المعــركة عاد الى المزرعة ، وهكذا كانت أفكاره فى الحرب ، وبالمثل كانت أفكاره فى السياسة ، فعندما دعاه الواجب أن يذهب الى البيت الأبيض صدع بالرغبة وادى مهمته خير أداء فحقق لأمريكا أعظم نجاح أثناء رياسته للجمهورية الناشـــئة وبانتهاء هذه المهمة العظيمة رفض تجديد انتخابه وعاد الى مزارعه ليحيا فيها حياة رجل السلام .

ومثلما فعل فى فاتحة حياته حين ترك عمله الريفى الى ساحة القتال ، فعل فى آخر أيامه ، وبعد ولايته لرياســـة الجمهورية مرتين ، فلم يقبل أن يظل قاعدا بين زهور المجد وذكريات البطولة حين اضطربت الأموربين فرنساوالولايات المتحدة عام ١٧٩٨ وانما نهض ليتولى قيادة الجيش حتى مرت الأزمة بسلام ، وهكذا كان جورج وشنطن ـ كما أعلن مجلس الكونجرس ـ الأول فى الحرب، والاول فى السلم . والأول فى قلوب مواطنيه .

ولقد أحرز وشنطن هذه المكانة فى قلوب مواطنيه لأنه كان أمينا فى خدمتهم ، كما أنه كسب مكانته بين جنـــوده لأنه كان

يحارب معهم ويقف بين صفوفهم ويتقدم الى المعمعان مثلما كانوا يعملون .. ولهذا ظلت سيرته عاطرة واسمه لامعا رغم مرور عشرات الاعوام ، ولقد ذهب بعض المؤرخين الي القول بأن جورج وشنطن كان يمثل نوعا جديدا من العظمة الانسانية وانه كان نسيج وحده .

وقد عرف العالم قبل جورج وشنطن قوادا عظاما كالاسكندر وفردريك وغيرهما ولكن أكثر القواد العظام كان ينشد الحرب للغزو ويسعي للفوز وعلو الصيت ، أما وشنطن فلم يحارب قط الا دفاعا عن وطنه ، فاذا تم له ما أراد عاد الى مزرعته تحت ظلال السلم الذى أحبه دائما .

لقد عرف العالم سياسيين بارعين وحكاما قديرين نجحوا بالسياسة والدهاء فقوضوا العروش وتحكموا فى مصائر الشعوب اماوشنطن فلم يسع الى الحكم ولم يهدم أحدا ، وانما دعته أمريكا الى البيت الأبيض وهو زاهد فى ذلك ، فلما قام بواجبه وخدم امتهاجل الخدمات رفض ان يظل رئيسا الى الأبد ، وغادر البيت الأبيض الى مزرعته راضيا مستريح الخاطر .

فهو رجل عاش لوطنه مزارعا وقائدا ورئيسا للولايات المتحدة ، وكان فى جميع هذه الحيوات هو هو فى رضاء الضمير واداء الواجب وخدمة البلاد .

وكانت شخصيته بسيطة غير معقدة وقلبه مليئا بحب وطنه ، فكان المزارع الوطنى والجندى الوطنى والسياسى الوطنى ، ولم تعرف عنه هنة من هنات رجال السيف أو السياسة لأنه لم يطمع فى شيء لنفسه ولم ينظر الا بعين مصلحة وطنه .

قائد بالفطرة :

وقد عرف وشنطن ميدان الحرب فى حداثته وخبر اساليب الهنود فى قتال الغابات ودرس التكتيك الفرنسى فى اعمال

التحصين والدفاع ، ولهذا كان وشنطن جنـــديا مدربا قبل أي أمريكي آخر عندما بدأت حرب الاستقلال .

وكان وشنطن رجلا نبيلا ، جنتلمان رفض الاتجار في العبيد رغم شيوع هذه التجارة ، وعمل على ترقية وسائل الزراعة وتزوج مبكرا وكانت سمعته نقية وشخصـــيته محبوبة ولم يكن يقض مضجعه غير تغلغل النفوذ البريطاني في بلاده .

ولما لم تعد مندوحة من قتال الانجليز لاجلائهم عن أمريـكا التفت الأنظار عند الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقود القوات الأمريكية فعين وشنطن قائدا عاما في يونيو عام ١٧٧٥ .

ولم تكن مهمة وشنطن أن يتولى القيادة فحسب فقد كان عليه أن ينهض بواجبات أخرى كثيرة ، فالأمر لم يكن متوقفا على كفايته العسكرية كقائد ، كان على وشنطن أن ينشىء جيشا ، فالقـوات التى كانت بين يديه لم تزد على كونها مجموعات غير منتظمة ولا مدربة ، وكانت من ولايات مختلفة يميل كل فريق منها الى الدفاع عن ولايته دون غيرها بادىء ذى بدء .. وكان الأمر يقتضى انشاء جيش وطنى بمعنى الكلمة يعرف أن المعركة لأجل الولايات كلها ، وقد تمكن وشنطن من تحقيق ذلك في مدى عامين ، وراح ينفق الساعات والأيام في تنظيم ذلك الجيش وتسليحه وتدريبه لكى يواجه الجيش الانجليزى .

الشــئون الادارية :

وكان على وشنطن أن يصرف وينظم مسائل التموين والاعاشة فلم تكن هناك انظمة موضوعة ولا ادارة خاصة لشئون الامدادات والتموين . وقد كان من حظ الأمريكيين أن وقع في أيديهم في مستهل الحرب عدة معامل ومخازن انجليزية ومع كل مجهود بذله وشنطن فقد ظل الجيش البريطاني أكثر تنظيمـــا من ناحيـــة المواصلات والتموين رغم مئات الأميـــال التى تفصـــل الجيش عن

انجلترا .. وكذلك كان على وشنطن أن يواجه الوضع السياسي للولايات التى اتحدت تحت لوائه دون أن تكون متحدة في شئونها كافة .. وأحوج ما تحتاجه الحرب « الوحدة » : وحدة الرجال ووحدة النضال ، وكانت مهمة وشنطن دقيقة وشاقة للتقريب بين وجهات النظر وتوحيد الجهود ، فان ايثار كل قوم لصالح ولايتهم كان يزيد من أعبائه .

وقد حمل وشنطن العبء كاملا ، وعمل بكل نشاط وهمة في ميدانى العسكرية والسياسة ولكنه كان أمام عدو أكثر عددا ونظاما وعتادا وهيبة فبدأ القتال بارتداد وشنطن الى نيوجرسى وكانت هزيمة مكدرة كادت تقضى على كل أمل لولا ما بذله من جهد وما أتاه من براعة فتفادى أزمة بعد ازمة وخرج من معترك فى اثر معترك دون أن تأتى النهاية .. وعندما كانت الدائرة تدور عليه ويكاد الأمل يتبدد ، كان وشنطن يفلت بجيشه من براثن الخطر ؛ فلم ييأس قط ولم تفارقه الزكانة ولا البراعة فى تفادى الكوارث . وهنا محك القائد العظيم .

وكانت خطة وشنطن فى انسحابه من نيويورك أن يعرقل تقدم العدو بكل وسيلة فاستخدم الأنهار التى فى طريقه ، وكان يعبر أحدها ثم يعسكر على الشاطىء الآخر لصد التقدم الى أطول مدة ممكنة ثم ينتقل الى مانع آخر ، وبهذا كان تقدم الانجليز بطيئا ومحفوفا بالمكاره . ولو لم ينجح وشنطن فى عملية الانسحاب لقضى على جيشه ، وانتهت أمريكا الى يد انجلترا عصرا آخر .. ولكنه استطاع ان يفلت من قبضة أعدائه كلما اوشكت على الظفر به .

الجرأة والفطنة :

وكان لايترك فرصة تسنح له حتى يغتنمها بمهاجمة الانجليز وتكبيدهم الخسائر ومن ذلك أنه عبر نهر الدولير فجأة على رأس قوة محدودة العدد وهاجم الانجليز وأصابهم بخسائر فادحة ثم

عاد الى خطوطه ومعه الف أسير .. قبل أن يفيق العدو من هول المفاجأة ! كذلك كان انتصاره فى معركة بريستون دليل الكفاية العسكرية التي تبدد السحب الكثيفة والظروف السيئة .

كانت معركة بريستون التى انتصر فيها وشنطن على تجريدة انجليزية معركة صغيرة ولكن رائعة وقد برز فيها جامعا بين جراة الدوق وليم وذكاء مارلبورو ، كما اظهـــرت اهمية الجمـع بين ضروريات القيادة ومقتضيات السياسة .

لم تكن الولايات أمة واحدة ولكن ثلاث عشرة ولاية مستقلة ، ولم يكن الكونجرس يؤدى واجبه تماما فى هذه المرحلة الخطيرة فكاد أن يتسبب فى خسران الحرب ، اذ أنه لم يصدر الاعتمادات اللازمة للجيش بالسرعة المطلوبة وكان يرســـل رواتب الجنود متأخرة كثيراً وبغير نظام ولم يتخذ الاجـــراءات الكفيلة بامداد وتموين الجيش فى الميدان ويرجع السبب فى كثير من الأخطاء التى حدثت والتقصير الى الأنانية ونظر كل فريق الى مصلحة ولايته .

ولما نجح بنيامين فرنكلين فى عقد المحالفة مع فرنسا ، كانت صفقة رابحة ليس فقط من اجل الرجال ولا المال بقــدر ماكانت مهمة من الناحية الحربية ، فقد جاء الأسطول الفرنسى للعمل ؛ الأمر الذى يستطاع معه قطع مواصلات بريطانيـــا وامداداتهـا البحرية ، وقطع خط الرجعة ايضـا على الجيش الانجليزى فى حالة الهزيمة . وقد ظهر خلاف فى وجهة النظر بين الضـــباط البحريين الامريكيين والفرنسيين فافرغ وشنطن كل كياســـته وبراعته وتمت الخطة التى أرادها ووقف الأسطول الفرنسى لقطع مواصلات البريطانيين وخط رجعتهم ، وبهذا تحقق الفوز .

البيت الأبيض :

ولم يـكن وشـــنطن من الراغبين فى توجيه الضـــوء الى اشخاصهم .. ومع هذا فعند انتهاء الحرب كان كل امريكى يعلم

ان هذا الرجل هو الذى احــــرز النصر وان امريكا مدينــــة له باستقلالها . ولقد حارب بشخصه وانشا جيشا من العدم وعلم الكونجرس واجباته وهو يظهر انه خادم الكونجرس ومنفذ اوامره

وعندما انتهت الحرب اراد وشنطن ان يعود الى مزرعته فى مونت فرنون ولم يكن له اى اطماع .. كذلك عادت الولايات الى شئونها الخاصة ، كأنما انتهى الخطر الى الأبد ، وكأنما لم تتحدد الا فى وقت الحرب .. ولكن كانت هناك واجبات كثيرة لابد أن تقضى وأعمال عظمى يجب أن تتم ، فالقوانين يجب أن تعــــدل ، والتعاون يجب ان يستكمل والحكومة المركزية يجب أن تنهض .. هنا دارت الأنظار جميعها ثم التقت عند الرجل الذى قاد الأمريكيين الى النصر فى الحرب ، فهو . هو نفسه الذى يستطيع أن يقودهم الى العظمة فى السلم .

وقد انتخب وشنطن رئيسا للجمعية التى أنيط بها وضع نظام الدولة ودستورها وبعد ستة سنوات بدات الولايات المتحــــدة تسير فى الطريق الصحيح للحياة المدنية والسياسية وقد اقامت وشنطن رئيسا للولايات المتحدة بالاجماع فى ٣٠ ابريل ١٧٨٩ .

وقد نجح الرئيس السياسى مثلما نجح الرئيس العسكرى .

واصبحت رئاسة الولايات المتحدة أهم شيء يراه السياسيون ، ليس فى أمريكا وحدها ، بل فى العالم كله .

نابليون بونابرت

لم يحدث لرجل أن يتحكم في مصير بلده وجيله ويؤثر في مصائر الأجيال التي جاءت بعده كما حدث لنـــابليون ، فهـذا الضابط الصغير الذي امتاز بقوة شخصيته ، ومضاء عزيمتـه وطموحه الهائل قد أهلته عبقريته العسكرية لأن يكون قائد فرنسا وامبراطورها ، وأن يواجه أعظم القوات الحـــربية في زمانه ـ متفرقة ومجتمعة ـ فيذيقها مرارة الانكسار .. ثم يقــولون ان نجاحه كقائد لم يبلغ نجاحه كحاكم ورجل دولة ونظام وقـانون ومدنية .

ولد نابليون في ١٥ اغسطس عام ١٧٦٩ في اجاكسيو بجزيرة كورسيكا ، ونشأ نشأة عسكرية وصار ضـــابطا في عام ١٧٨٥ وعندما نشبت الثورة الفرنسـية تفتحت آماله ونشطت عزيمتـه وأعجب بالثورة ومبادئها ولكنـــه لم يعجب بالفوضى التي حلت بفرنسا والجرائم الشنيعة التي كانت ترتكب باسم الحرية والاخاء والمساواة .

وعندما واتته الفرصة سارع اليها واصبح الكابتن بونابرت قائدا للمدفعية في حصار طولون عام ١٧٩٢ وكانت قد ثارت واعتصمت بمعونة الانجليز .

الوقت كالسيف :

ووقف الضابط الشاب أمام المدينة التى شقت عصا الطاعة وقال :

« الآن أصبح طرف الحبل في يدى .. ساحتفظ به جيدا في قبضة قوية » : وصار يضع خطة لم يكن مثلهامعهودا فى ذلك الزمان . فهى خطة محفوفة بالمكاره أو هى مغامرة لاترضى أذواق الجنرالات : « سأفصل القوة البريطانية والثوار عن الأسطول » وسأوجه مدفعيتى بين البر والبحر ثم أقذف المدينة بوابل من النيران .. فيقع الفأر فى المصيدة » .

وقال نابليون « **ان الوقت هو اهم شيء** » .

هذا هو ماقاله اليوزباشي ، ابن الرابعة والعشرين ، للجنرالات في باريس وقالوا : هذا هراء .

ونجح الهراء وانسحب الانجليز فى ليلة واحدة ، كما توقع صاحب الهراء ، وكان هذا أول نصر حربى يحصل عليه ، وحصل معه على رصاصة فى قدمه وجرح بسيط .

وقال التاريخ : هذا نجم جديد فى سماء الحرب .

لمعت عينا نابليون وقال : سأشق طريقى بحد السيف .

الصبر والشجاعة :

« أيها الجنود :

انكم مغلوبون على أمركم مظلومون فى طعامكم وملبسكم ، وقد وعدتكم الحكومة بالشيء الكثير ولكنها لم تفعل شيئا لأجلكم ، ان صبركم وشجاعتكم قد أولتكم الشرف ولكنها لم تجيء لكم بخير

انني ساقودكم الى اغنى وديان العالم ، الى الأقطار الخصبة والمدن العظيمة .. هناك ستجدون المال والمجد والشهرة » .

بهذا الخطاب الداوى الذى القاه نابليون على جنود نصف عراة جوعانين ، ارتفع الستار عن فصل من الكفاح العسكرى المرير لتقرير مصير العالم عشرات السنين .

فى تلك السنوات المضطربة الحافلة بالانتصار والانكسار لفرنسا وغيرها من دول العالم كان نابليون البطل الأول على مسرح التاريخ . كان القائد الملهم والحاكم المعلم .. واذا كانت حياته العسكرية قد انتهت بمأساة فان أعماله التنظيمية والقانونيةبقيت الى يومنا هذا وستبقى بعدنا شاهدة بنبوغه وعبقريته .

أصبح نابليون جنرالا فى عام ١٧٩٦ وقاد حملة تاريخية ضد النمسا وايطاليا وهو فى سن السابعة والعشرين على رأس جيش، أو على الأصح بقايا جيش . واستطاع أن يدفع فى هذه البقايا الواهنة روح الغلبة والنصر والفخار وأن يهزم بها دول أوروبا . فأين كانت قوة نابليون بونابرت ؟

الشباب والصحة :

لقد بحث هذا السر كثيرون من المؤرخين والمعنيين بالتراجم، ومنهم الكاتب العالمى المعاصر اميل لودفيج ، الذى بحث الموضوع من زاوية جديدة ، قال :

١ — ان أول أسرار نجاحه : **شبابه وصحته** .

كان يتحمل الركوب ساعات طويلة بلا اعياء ، القدرة على النوم فى اى لحظة ، **المعدة التى تستطيع ان تهضم كل شىء** ، الالمعية التى ترى ماوراء غبار المعركة .

٢ — ان الثورة ضربت بالروتين عرض الحائط ، فجعلته جنرالا ، فهى كانت تقدر الناس بأعمالهم لا بسنهم .. ومن هنا بدأ .

٣ ـ ان خصومه في المعركة كانوا دونه في كل شيء .

* الأرشيدوق شارل ، الأرستقراطي الناعم ، كيف له بتحمل المشاق كمايتحملها ذلك الكورسيكي العنيف .

* جنرال بوليو ، القائد النمسوي ، كان في الثانية والسبعين بينما كان نابليون في السابعة والعشرين .

* جنرال كولى ، كان مريضا بالنقرس ، يحملونه على نقالة اثناء المعركة ـ « الفنتري » في الخامسة والستين » .

* « ورفر » ، أطرش بطيء الفكر والحركة .

فماذا كان يستطيع هؤلاء امام قائد شاب دائب الحركة دائم النشاط يركب جواده عشرين ساعة وينقل مركز رئاسته كل يوم ويعتمد على ضباط شبان ويقول : « الوقت هو كل شيء » .

كان أكبر معاوني نابليون سنا الجنرال برتيه في الثامنة والأربعين من عمره وقد استبقاه لانه كان على علم ببواطن الأقطار الاوربية ، والجنرال مسينا الذي خدم ١٤ سنة في الجيش ولم يبلغ الا رتبة الباشجاويش فجعله نابليون بعد عدة اسابيع جنرالا . **كان نابليون لايرقي الا الضابط الشجاع .**

لقد رقي أحد رماة القنابل بعد ثلاث معارك الى رتبة القائمقام، واستغنى عن جميع الجنرالات ، الذين يعملون كل شيء .. ولكن في المكاتب فقط .

٤ ـ ان نابليون كان يعتبر نفسه قائد **« جيش الشعب »** وهذا تعبير ثوري يرضي الجنود ويلهب الجماهير . أما جيوش خصومه فكانت جيوشا محترفة ، تنطق ست لغات مختلفة .

وكان الجيش الفرنسي قد اشرب روحا جديدة فهو يمثل ثلاثين مليون فرنسي . وهو يحارب من اجل حرية الجمهورية اذاعة مبادىء الثورة الفرنسية ويقاتل لصد قوات الملكية الشرعية » .. كان الفرنسيون محاطين بأقطار الملوك والأباطرة

الذين يريدون ابقاء شعوبهم بمنأى عن مبادىء الثورة ، ويعملون المستحيل للقضاء عليها ، ولهذا شرعت فرنسا فى الهجــوم ، كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ..

اى أنهم صاروا غزاة رغم أنوفهم .

وهذا هو العامل الرابع فى نجاح نابليون ((**الهدف**)) .

كان يلقى المنشورات قبل قذائف المدافع ليقول لأهالى لمبارديا وايطاليا انه جاء يخلصهم من الذل ويحررهم من آل هبسبورج وملوك سردينيا والدوقيات والاقطاعيات ، فتهيــــات الأقطـار لاستقباله ووجدت أملا فى انتصاره .. وهكذا **اجتازت مبـادىء الثورة الحدود قبل أن تجتازها الجيوش** .. كان هنـــاك طـلاب الحرية ينتظرون نابليون . والمعذبون فى الأرض ينتظرون نابليون. ثم انه كان من دم ايطالى ، ويحمــل اسما ايطاليـــا ، فاحبــه الايطاليون ، ولم يكن فى نظرهم غازيا فرنسيا ، بل رجل حـرية ومسـاواة ، وكانت خطاباته تحمل دائما هذين المبداين ، **وكان لايفتأ يذكرهم بمجد أثينا واسبرطة وروما** .

وكان يقول لجنوده فى بعض أوامره اليومية :

أقسموا لى أن تحافظوا على الأهالى الذين سنحررهم ، فلا تكونوا سوط عذاب ، اننى وجنرالاتى لانقبل قيادة جيش لايعتصم بالشرف ويعتز بالنظام والضبط والربط .

وأعطى أمرا للقادة باعدام من يخفى شيئا منهوبا من الأعداء وكان مطلعا فى التاريخ وقد قرأ وهو برتبة الملازم كتاب «بلوتارك» عن حياة العظماء ، وقرأ تاريخ العالم وتاريخ ايطاليا وحكامهـــا ونظمها وطبائع أهلها . لقد أصبحت المعارك البسيطة بفضل كلماته معارك عظمى ، وصارت المعارك قسما من تاريخ العالم .

ان نصف ما أحرزه نابليون من انتصارات .. أحرزه بكلمات

انظر خطابه الى جنوده فى ميلان :

« ايها الجنود .. لقد انقضضتم كالسيل الجارف من مرتفعات الابنين فصارت ميلان لكم ، اننا أصدقاء الأهالى . اصدقاء احفاد برنوس وسيبيو والآخرين من الأبطال الخالدين . سنعيد بناء العاصمة ونقيم تماثيل الأبطال ونوقظ الشعب الرومانى الذى عاش قرونا فى ظلال العبودية .. هذه هى ثمرات انتصاراتكم ثم تعودون بعدها لدياركم ، وسيشير جيرانكم على أحدكم قائلا بفخار : « لقد كان مع الجيش فى ايطاليا » .

فهل سبق لقائد أن وجه مثل هذه الكلمات لجنوده .. للاهالى .. للاصدقاء .. للاعداء .. ان نابليون كان يعرف كيف يسيطر على الناس من ناحية مراعاة شعورهم واذكاء أسباب الاقتناع ، وليس باسلوب الاخضاع .

لقد استطاع بونابرت بسن القلم أن يثبت الانتصارات التى احرزها بحد السيف .

الجيش يقول :

سارت حملة نابليون على ايطاليا بطريق الألب الشاقة وكان جيشه كما قدمنا قليل المؤن والذخائر بيد أنه كان قويا فى روحه المعنوية مشتعل الحماسة ، فما أن نزل فى السهل الأعظم حتى مزق شمل أعدائه فى موقعه « مونتنوت ــ ابريل عام ١٧٩٦ » .

ومازال يتتبع السردينيين حتى نفضوا أيديهم من محالفة النمسويين وتخلوا عن نيس وسافوى فى ابريل ١٧٩٦ . ثم اتجه الجيش الفرنسى الى غريمه ، فارتد بوليو أمام العاصفة تاركا سهل لومبارديا مفتوحا أمام نابليون الذى دخل ميلان ثم منتوا التى استسلمت بعد معركة قاسية ، فواصل زحفه الى فينا .. واضطر النمسويين الى التقدم بطلب الهدنة .

وكتب نابليون الى حكومته فى باريس يقول :

« تلقيت مشروع معاهدتكم مع سردينيا ، لقد وافق عليها الجيش » .

وصعق رجال الحكومة من هذا الأسلوب ، اذ لم يعرف من قبل أن قائدا فى الميدان واجه حكومته بمثل هذا التصريح .. وقال خصومه فى باريس ـ من اجل هذا الخطاب ! ـ يجب أن يقف هذا البطل الصغير امام جماعة ضرب النار ..

ولكن حال دون ذلك شهرة اسم نابليون وانتصاراته ، والمجد الذى احرزه فاتح لومبارديا .. فأصبح بمنجاة من البطش .

واخذ نابليون يعمل بسرعة فقد كان يقول : قد اخسر المعركة ولكن لن يرانى أحد اخسر بضع دقائق .

وكانت أول معركة كبرى هى : لودى .

عملية خداع متقنة ، وحركة جسورة عصفت بالقوات النمساوية التى فوجئت بالهجوم .. لقد نال فيما بعد انتصارات اعظم شأوا ، ولكن انتصاره هذا الرائع لم يكن له مثيل لما احدثه من اثر فى الروح المعنوية ، فبدأ يرى بوضوح طريق المجد .

لقد قررت « لودى » مصير القسم الأول من الحملة ، وأظهرت بوضوح علامات عبقريته العسكرية ، فاختلطت الأحلام بالحقائق والخطط المبهمة بالأعمال الباهرة .. « اننى تنبهت بعد معركة لودى الى أننى انسان ملهم ، ويومها كان بداية تحقيق آمالى فى أن أعمل شيئا عظيما مما كان يبدو لى فى الماضى أضغاث أحلام »

نعم كان يدور براسه غزو قارتين أو ثلاث ، ولكن كان يدور برءوس الكبار فى باريس وقف نابليون ، وكانت أول خطوة لذلك ارسال الجنرال كارمان ليشاطره العمل .

قائد واحـد :

وقد كتب نابليون لحكومته بصراحة انه يفهم انها تضع فى طريقه العراقيل وقال : « قد يكون الجنرال كارمان قائدا ممتازا يستطيع أن يعمل شيئا حسنا ، ولكننا ـ ونحن لانتفق معا ـ سنعمل شيئا رديئا .. لايمكن ان تكون المسئولية مجزاة ، واننى أستعين

بشجاعتى لتحرير هذه الكلمات التى قد تفسر بانها من نتاج المطامع والعظمة .. اننى لا استطيع ان يعمل الى جانبى قائد يعتبر نفسه احسن جنرال فى أوروبا .. ان قائدا رديئا أفضل من قائدين ممتازين » .

لقد رفض نابليون ما أرادته الحكومة من تعيين قائد معه ، ووصل الى باريس رده الحاسم : لا .

وفى اليوم التالى تحرك الى ميلان ، وهناك حيته الجماهير فخطب فيهم قائلا :

« ستكونون احرارا وفى مأمن أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، ستكون ميلان عاصمة الجمهورية الجديدة ذات الخمسة ملايين ، وسأختار منكم خمسين رجلا لحكمها باسم فرنسا .. ان أثينا واسبرطة لم يذهبا الى الأبد . »

نعم من عهد بلوتارك وأبطاله لم يأت قائد كنابليون يقول مثل هذه الكلمات . كان نابليون يرى **الجمع بين القيادة العسكرية والسياسية والمالية أثناء الحملة** : « يجب أن توضع الثقة كلها فى قائد واحد ، لايتدخل أحد فى عمله ، أن امامى ان افعل كل شىء بجيش ضعيف ، لابد أن أدفع القوات الجرمانية ، وأزيل الحصون ، واحفظ خطوط مواصلاتى ، واستولى على جنوة وفنسيا وتوسكانى وروما ونابلى واثبت قوتى هنا وهناك ، وفى كل مكان . ولهذا فلابد من توحيد جميع القوى العسكرية والسياسية والمالية فى يدى .

اذ لم يكن الجنرال هو المركز الرئيسى القوى ، فان الجيش يتجه نحو الهوة » .

حكومة المحامين :

كانت الحكومة فى باريس تحتفل بالنصر ، وتأتمر بالمنتصر . وهنا حاول نابليون ان يحصل على امداد ومؤن ، وكانوا

يتداولون فى أمره وكيف يقضون عليه قبل أن يقضى عليهم .
فانه يحرز النصر ، ويتفق على الهدنة « فاذا عاد الى باريس بطلا فاتحا فسوف يدفعنا بيد واحدة ويأخذ الحكم باليد الأخرى » .

وكتب اليهم نابليون محذرا ومنذرا :

« باسم ثمانية آلاف رجل احذركم وأقول لكم : ان الوقت الذى كان حفنة من المحامين يستطيعون فيه السيطرة على مصائر آلاف الجنود وسوقهم الى المذبحة .. قد انتهى ولن يعود » .

فباسم الجيش انتصر نابليون ، وباسمه أجاب طلب الهدنة . وقد تم عقد صلح كامبو فورميو فى أول اكتوبر عام ١٧٩٧ وبه تخلت النمسا عن كل أملاكها فى ايطاليا ، وكسبت فرنسا نصرا عظيما .

الى الشرق :

لقد استطاع نابليون أن يحقق حلمه الذهبى بغزو ايطاليا وقهر النمسا ، فهل كان ذلك نهاية الحلم ؟ .. لا ، ليست هناك نهاية ، فكل خطوة تفتح بابا جديدا من أبواب الأمل .. كان ينظر الى الأفق البعيد ويرنو الى القسطنطينية فيصبح مالكا لدولة أعظم رقعة من ملك آل هابسبورج .

(اننى ذاهب الى الشرق للاستيلاء على مالطة ومصر ، وطرد الانجليز من شاطىء البحر الأحمر . وفتح قناة السويس) .

ترى .. هل ذهب نابليون الى الشرق ليفعل ما فعله الاسكندر فيصبح قاهر الدنيا أم اراد هدم سيادة بريطانيا ؟ .. يبدو أنه أراد الهدفين معا .

وتحركت الحملة من طولون يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ .

وكان فى طريقه الى الميدان الجديد يقرأ : رحلات فى مصر ، حياة بلوتارك كتب هوميروس ، معارك الاسكندر . القرآن الكريم .

وهناك في صحراء مصر وقف أمام تمثال « أبو الهـول » العين في العين والصمت متبادل ، ولكن فكره كان يقول

هنا وقف الاسكندر من قبل ، وقيصر ، وها أنذا في مكانهما الخالد « ان أربعين قرنا تنظر الينا من قمة الأهرام » .

ولم يكن غزو مصر عسيرا . وهو لم يأت لها بالسيف وحده ولكن جاء بالعلماء والاخصائيين يغيرون نظام الحكومة وينشرون العلم ويقيمون دعائم المدنيه الحديثة .. كان يدفع قـواته الى القتال واراقة الدماء ، ويوجه معاونيه الى البناء واقامة العمران .

موقعة النيل :

كان الأنجليز لنابليون بالمرصاد ، واذا كان قد غافلهم وشـق طريقه في البحر عجبا الى وادى النيل فان في استطاعتهم حصاره ولم يلبث أسطولهم البريطاني حتى اقبل على « أبو قير » وفاجأ المراكب الفرنسية في معركة سريعة قضت عليها وقطعت طـريق الاتصال بين فرنسا وجيش الشرق ، فلما سمع نابليون بهـذا النبأ الصاعق قال : « اذن قد أصبحنا محصورين في مصر » .

وراح يفكر : لو أنني تركت هنا خمسين ألف جندى واخذت معى ثلاثين ألفا ، لافتتح الهند ؟ .

وقطع عليه حبل تفكيره اعلان تركيا الحرب على فرنسا وعزم الحكومة التركية على تسيير جيش الى سـوريا وآخـر الى الاسكندرية بمساعدة بريطانيا فاضطر نابليون الى أن يعمل بسرعة لمباغتة خصومه في سوريا ، فخرج الى العريش ومنها زحف الى غزة ويافا ثم حاصر عكا وكانت « بندقة صـعبة الكسر » فان معدات الحصار كانت قد وقعت في ايـدى الانجليز فلم يفلح نابليون في فتح عكا واضطر للعودة الى مصر لملاقاة القوات التركية التي نزلت في الاسكندرية .

وفى يوم ٢٥ يوليو ١٧٩٩ فاجأ بونابرت هذه القوات وبدد شملها عند ابى قير ، وقال الجنرال مورا لقائده نابليون :

« أيها الجنرال : انك كبير كالدنيا . ولكن الدنيا صغيرة بالنسبة لك » .

السيف والرمح :

اضطرب حبل السلام فى أوربا وتحالفت روسيا وانجلترا والنمسا ضد فرنسا واشتبكت فرنسا فى حرب مع نابلى وسردينيا ، ففكر نابليون فى العودة سرا ، ولو بغير انتصار ، وكانت فرنسا فى حاجة اليه لدفع الفوضى التى بدأت تدب فى أوصالها وارغمت حكومة الادارة على استدعائه فلما عاد الى وطنه وجد « الكمثرى ناضجة » فانضم الى جبهة الزعيم « سييس » الراس ، ونابليون اليد فحدث انقلاب « بروميير » أرغمت حكومة الادارة على الاستقالة وتدخل الجيش فى تطهير مجلس الشيوخ والنواب وتألفت حكومة مؤقتة لادارة شئون البلاد . ووضعت السلطة التنفيذية فى يد ثلاث قناصل ينتخبون بواسطة مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات على أن يكون بونابرت قنصلا أولا .

وكان نابليون يقول « ان الذى يعجبنى أكثر من كل شىء هو ضرورة القوة لتنظيم اى عمل . . **توجد فى العالم قوتان : السيف والرمح . والسيف دائما ينهزم أمام الرمح** » .

هكذا كان نابليون يفكر بعقلية المحارب وروح المصلح . .

ولم يكن بد من امتشاق الحسام لتأمين سلامة فرنسا من أعدائها المتحالفين عليها وبدأ بالنمسا التى كانت قواتها تهاجم الفرنسيين فى ايطاليا ، فحمل عليها نابليون حملة شعواء مجتازا جبال الألب وسويسرا هابطا الى سهول لمبارديا مهد مواصلات النمسويين الذين دحرهم فى سهول « مارنجو » ١٤ يوليو ١٨٠٠ ـ فكانت من معارك التاريخ ـ وقد نال الفرنسيون نصرا ثانيا فى

معركة هو هنلن فسعت النمسا الى الهدنة وعقدت معاهدة « لونيفيل » .

وهكذا تمت خطوة هامة من خطوات السلم الذى كان ينشده نابليون . كما أنه قبل شروط فى صلح اميان ـ مارس ١٨٠٣ ـ مع انجلترا ، وسحب قواته من مصر ، وبهذا انتهت الحرب واستقر السلم ، وشرع نابليون يجرى يد الاصلاح فى فرنسا ، واستطاع فى مدى أربع سنوات أن يتم تنظيم فرنسا وكافة مرافقها وشئون الحكم والاقتصاد والعمران ، وكان من نتائج ذلك أن وافق الشعب بأغلبية عظمى فى عام ١٨٠٢ على تعيينه قنصلا مدى حياته .

يحيا الامبراطور :

وفى يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ احتفل بتتويج الامبراطور فى كنيسة نوتردام ، وكان المنتظر أن يركع نابليون أمام قداسة البابا ويقبل أطراف ثوبه فيتفضل هذا عليه بالتاج ويضعه على رأسه . وفى اللحظة المرتقبة فاجأ نابليون الجميع بأن نهض من مقعده فأخذ التاج بيده ووضعه على راسه ، ثم تناول تاج الامبراطورة ووضعه على راس جوزفين .

وهكذا توج نابليون نفسه ، على النحو الذى حدثنا به أمير الشعراء شوقى :

مجلس التاج على مفرقه   بيديه لا بأيدى المجلسين

واذن فقد وصل الضابط الكورسيكى الصغير الى عرش فرنسا ووضع التاج على مفرقه بيديه .. ومع هذا فانه قال : لقد جئت الى الدنيا بعد فوات الأوان ولم يعد هناك شىء عظيم لأفعله .. ما أبعد الفرق بينى وبين العظماء الذين صاروا فى التاريخ .. انظر الى الاسكندر فانه بعد غزو آسيا اعلن أنه ابن الاله جوبيتر وصدقه العالم كله ـ عدا أمه واستاذه أرسطو ـ

أما انا فاذا اعلنت نفسي ابنا لأحد الخالدين فان زوجة اى صياد سمك سوف تضحك وتهزأ بى !

كان يحلم دائما بالشرق .. وامبراطورية عظمى يرفرف عليها السلم .

وكان يفسد عليه حلمه الجميل : كابوس .. الاسطول البريطانى !

فكيف يدحر بريطانيا ؟

لا جديد تحت الشمس :

فكر نابليون فى دحر بريطانيا بمقاطعتها اقتصاديا اى بمنع مراكبها من دخول الشاطىء الأوربى ، كذلك فكر فى محاولة انزال قواته على ارض بريطانيا وكان يقول : « آه لو تمكنت من وضع قدمى على هذه الجزيرة » .

واخذ يفكر ويبتكر ويدرب أسطوله وجنوده ولكنه للمرة الأولى شعر بمرارة الاخفاق لأنه لم يكن اخصائيا فى الحرب البحرية .. وقد حطم نلسون هذا الأمل بضربة الأسطول الفرنسى فى الطرف الأغر عام ١٨٠٥ وراح نابليون يدعو للسلم ويكتب الرسائل للملوك ومنهم ملك بريطانيا ، ولكن جميع الدول ـ بتأثير الدسائس البريطانية ـ لم تقبل أن تكون فرنسا أكبر قوة فى العالم . ولم تأمن أن يكون على رأس فرنسا مثل هذا الجندى الرهيب .

كان الاسكندر الاكبر مثله الأعلى ، ولكنه بعد تتويجه ، فكر فى نموذج آخر .. فى شرلمان ، لقد ذهب لزيارة قبره فى اكس لأشابل ، وعاد يقول : « لن يكون هناك سلم الا اذا كانت أوربا كلها فى يد امبراطور يجعل من ضباطه ملوكا عليها ... ان امبراطورية شرلمان ستعود من جديد ، حقا .. لا جديد تحت الشمس » .

وبدا تنفيذ سياسته الجديدة ، فحول جمهورية ايطاليا وراثية بحكمها ابن زوجته « اوجين » ثم ألحق بيدمنت وجنوده وبارما بأملاك فرنسا وراح يتطلع الى سويسرا ويدفع الولايات الألمانية لى الاتحاد فى قبضته .

هذا بينما كان حلف جديد قد تكون من روسيا والنمسا والسويد تؤيده بريطانيا وعادت الحرب !

ملكان في كمين :

التقى الجيشان الفرنسي والنمسوى فى وقعة « أولم » فى اكتوبر ١٨٠٥ واحرز نابليون نصرا مجيدا بفضل عنصر المفاجأة وقال نابليون : لقد قبضت على الجيش بحركة يسيرة ، ولقد ثبتت هذه الحركة قدم الامبراطورية ، مثلما ثبتت « مارنجو » قدم القنصلية من قبل ودخل نابليون فينا ، فانضمت فلول قوات النمسا الى قوات روسيا وكان الملتقى فى أوسترلتز ، واحرز الامبراطور انتصارا عالميا جعل وليم بت رئيس وزراء بريطانيا يقول « فلنطو خريطة أوربا ، فلا حاجة لنا بها عشرة أعوام » .

وقد ترنم أمير الشعراء بهذه الوقعة فقال محييا نابليون :

عند استرلتز كان الملتقى واصطدام النسر بالمستنسرين
صدت شاه الروس والنمسا معا من رأى شاهين صيدا فى كمين

وكان الامبراطور نابليون فى خلال المعركة يرتدى حلة الجندى بجميع تفصيلاتها وخشونتها ويجلس بين ضباطه على الأرض ويحيا حياة جندى عادى ، وكتب الى زوجته يقول « لقد هزمت النمسا وروسيا معا ، وانتهيت من المعركة الآن ، ولابد لى ان اذهب الى الفراش لأول مرة منذ أسبوع ، وسوف أنام فى غرفة نوم البرنس كونتز .. عسى أن أنام ساعتين أو ثلاثا » .

وظل شبح الحرب ماثلا ..

فقد فشل نابليون فى مفاوضته لروسيا وانجلترا ، وبات يخشى تأليف حلف جديد ضده وخاصة بعد أن ثار ضباط

الجيش الألمانى ، حفدة فردريك الأكبر واضطروا حكومتهم لارسال اندار لنابليون بالجلاء عن المانيا .. فتدرع نابليون بهذا الانذار ، وباغت بروسيا فى موقعة سالفلد ثم فى موقعة « بينا » اكتوبر ١٨٠٦ ودخل برلين ، واخذ سيف فردريك الأكبر واعتبره اثمن كنز تلقته يداه ، ثم قابل الشاعر الخالد جوته وتبادلا التحية والاعجاب .

وفى عاصمة المانيا اصدر نابليون « مراسيم برلين » التى اعلن بها حصار الجزر البريطانية وحرم على أوروبا الاتجار معه أو فتح موانئها لسفنها ، وفى هذا قال « أريد هزيمة البحر بقوات البر » وراح يتعقب فلول الجيش الروسى المتراجع نحو الحدود الروسية حيث سارع قيصر روسيا الى نجدته ، وهناك فى الوا ، وفريدلند انتصر نابليون وسارعت الحليفتان الى عقد الهدنة ، ثم تقابل الامبراطور نابليون والقيصر الاسكندر فى نهر منمين واتفقا على شروط معاهدة نيلسن التى ولدت مملكة وستفاليا فى أملاك بروسيا غرب الرين ونصب عليها « جيروم » اخوه الأصغر ، وتعهد نابليون بمؤازرة القيصر فى فنلندا وتعهد له القيصر بالوقوف معه ضد بريطانيا .. وهكذا بلغ ملك نابليون أقصى اتساع .

حرب العصابات :

أراد نابليون أن نغلق سوق أوربا فى وجه بريطانيا ولم يقبل أن تقف أى دولة على الحياد ، وضم الى أملاكه جميع الشواطىء الألمانية واستولى على هولندا واغار على البرتغال التى رفضت الخضوع لقراراته ، فكانت اهم الأسواق الانجليزية . ثم اعلن ضم املاك البابا الى فرنسا وقبض عليه وسجنه ، واخيرا أجبر ملك اسبانيا وولى عهده على التنازل له عن العرش فى ابريل ١٨٠٨ وتوج أخيه يوسف ملكا على اسبانيا .

وبدأ فصل جديد من المسرحية الدامية ..

وقال نابليون بعد أن تورط في غزو اسبانيا :
« هذا أسخف عمل قمت به في حياتي » .
فرد عليه أحد صحبه القدامى :
يصح أن تنسحب ياسيدى ، وتترك هذه البلاد لأهلها .
فقال نابليون : « لايمكن ترك مكان وصل اليه عقلى وسيفى .
ومن العسير أن أعترف بانى وقعت فى خطأ فاحش ، وأسحب جيشا منهزما .. هل أنا نابليون الصغير ، أو انا نابليون العجوز؟»

كانت الشعوب تنشد الاستقرار ، ونابليون لايملك الا الحرب

لقد أخفقت جميع محاولاته لاقرار السلم فى أوروبا ، وراحت الدول تتألب عليه ، فلم يكن بد من اخضاعها بالسيف .. واذن فقد كان عليه أن يخضع النمسا وايطاليا ، وبروسيا ، واسبانيا ، وروسيا .. وبريطانيا .. ليس هذا فقط ، بل ساسة فرنسا أيضا .

وهنا بدأت نقطة التحول .

ومرة أخرى كان الجواد الأبيض المشهور يدق أرض النمسا ـ ملعبه المفضل ـ وصاح بونابرت فجأة : « لقد وجدتها ، ان جيشهم سيفنى ولن يمضى شهر حتى أكون فى فينا »

وقطع الجيش الكبير ٦٥ ميلا فى أربعين ساعة وحطم الجيش النمسوى فى ٥ معارك ، ثم بارح النمسا الى بروسيا ، وعاد فى خمسة أيام من درسدن الى باريس .. كان اسرع رحالة فى زمانه .

الجنرال يناير :

س ـ ما هو اقصر طريق الى موسكو ؟
ح ـ كل الطرق توصل الى روما ياسيدى ..
ان شارل الثانى عشر ذهب بطريق بولتافا .
سمع الامبراطور نابليون هذا الرد من الأسير الروسى ثم

أرخى العنان لجواده واستمر يذرع الطريق الطويل فى الفيافى الروسية أملا فى الالتقاء بالجيش الروسى فى معركة .. كانت مقدمة الجيش الفرنسي تلتقى بين حين وحين بمؤخرة الجيش الروسى ولكن لم تحدث معركة قط ، وكان الضيق يشتد بنابليون والعصبية تخنقه .. فى كل مساء يتوقع المعركة فى الصباح وفى الصباح لايجد أثرا لجيش العدو الماكر .. وتضحك روسيا ، وتضحك بريطانيا .

وفقد نابليون ثلث جيشه قبل أن يشتبك فى المعركة ..

وراح يعجب لتضحية الروس بمدنهم ، ثم التقى الجمعان فى بوردنيو ودارت رحى معركة ضروس خلفت ٧٠ ألفا بين قتيل ونصف قتيل .

ووصل نابليون الى موسكو ..

وقال الامبراطور : موسكو حانت ساعتك !

وقف ينتظر مفاتيح المدينة ـ يأتى بها عمدة موسكو ـ وينتظر الطعام الشهى للجنود والثياب الثقيلة .. وطال به الانتظار ، دون جدوى ، وأخيرا ركب ومعه أركان حربه قاصدا الكرملين .

وجد المدينة صامتة . والطرق خالية ، والأبواب مفتوحة .. ولا انسان ثم رأى شيئا رهيبا .. النار .. ان موسكو تحترق .

وفغر نابليون فاه ، وتلاشت اعصابه . واضطرب تفكيره ، وجعل يصيح : ما أبشعه من منظر ، يدمرون بيوتهم بأيديهم ؟ هذه القصور .. أى قرار جنونى .. أى أناس هؤلاء .. النار فى الكرملين ..

ووضع كمية من السم أعدها له اطباؤه فى كيس صغير مشدود الى عنقه ليستخدمه عند اللزوم .

أنا .. الجيش الأكبر :

وبالأمس كان جنود نابليون يتساقطون من شدة الحر فى صحراء مصر ، وهاهم أولاء يتساقطون من شدة البرد فى روسيا

فقد كان يريد ان يحكم الدنيا وحده ؟ ولم يصل الى سمولنسك في عملية الانسحاب سوى ٥٠ الفا ـ أي ١٠٪ من جنود الحملة ـ يتهددهم الصقيع ، والقوقاز .

وعادت فلول جيشه الى الحدود الفرنسية في حالة يرثى لها حتى ان المارشال ناي ـ اشجع الشجعان ـ دخلها ممزق الثياب كريه المنظر ، فلما سأله الناس من انت ؟ قال :

« انا الجيش الكبير »!!

وكان لهذه الهزيمة الماحقة التي دمرت قوات فرنسا أثرها في تأليب دول أوروبا ، وكان نابليون قد عاد ومعه خمسون الف مقاتل فقط . من نصف مليون .

واخذ في اعداد حملة جديدة .

وقال .. هذه المرة سأفعل كما كان يفعل : الجنرال بونابرت .

وادار معركة « بوتزن » بكفاءة نادرة ثم احرز نصرا جديدا في « بوتزن » .

كان همه في صعود ونجمه في قعود .

وكان يقول : ان صقيع روسيا افقدني كل شيء .. الا الشرف .

التنازل عن العرش :

وكانت كرة الحكم في فرنسا قد وصلت الى قدم تاليران الذي راح يلعب بمهارة ، ويسعى لاصابة الهدف : انقاذ فرنسا .

ورفض الحلفاء مفاوضة نابليون ، فارسل تاليران مسيو كولينكور للتفاهم مع الامبراطور فوجده في قصر « فونتنبلو » .. يصلي ..

وابتدره الامبراطور قائلا : ماذا تريد مني ؟

فأجاب : تضحيات عظمى .. تتنازل عن العرش لابنك .

النسر في القفص :

تم الاتفاق على نفى نابليون فى جزيرة « البا » وهناك .. عاش النسر فى القفص ، ولكن آماله لم تحبس معه .

وكانت الأمور قد صارت فى فرنسا على غير ما أراد لها ، وعاد آل بوربون للحكم وفجأة .. انطلق النسر من عقاله وهبط الى ارض فرنسا .. وفزعت أوربا كلها ، وارسل اليه ملك فرنسا الجيش بقيادة صفيه « ناى » ليحضر به اليه حيا أو ميتا

ووقف نابليون أمام جنوده ، وقال :

« اننى امبراطوركم . فاذا كان بينكم من يريد قتلى فايتقدم» فرد عليه صوت كهدير المدافع : يحيا الامبراطور .

المائة يوم :

وفى « ووترلو » كان الملتقى .

ووقف نابليون فى شالوروا على رأس ١٢٤ الف جندى ووقفت قبالته الحلفاء ٢٢٠ الف ، وفكر نابليون بسرعة ، ورأى أن يبدأ بمهاجمة الجيش البروسى بقيادة بلوخر عند « لينى » يوم ١٦ يونيو ١٨١٥ ولكن بلوخر نجح فى تفادى الكارثة وارتد بنظام صوب المواقع الانجليزية وحينئذ تحول نابليون الى جيش ولنجتون وبدأت معركة ووترلو .

وكان « جروشى » قد أخفق فى حجز وتثبيت الجيش البروسى وأخطأ فى فهم أوامر قائده نابليون ، فأفلت منه بلوخر ، وبدلا من أن يحضر الجيش الفرنسى جاء الجيش البروسى ، فكانت مفاجأة وصدمة لنابليون ، ومال ميزان المعركة وفى اللحظة الأخيرة .. انتصر ولنجتون .

وفى معركة تسعة أيام أضاع نابليون الامبراطورية التى جاهد لانشائها فى تسعة أعوام وخرج نابليون من مسرح الحرب والسياسة ودخل الى ساحة التاريخ الذى شهد أنه أكبر عبقرية

عسكرية . وفى سانت هيلانه قضى نابليون البقيــة الباقيــة من حياته ، وهناك كتب مذكراته وفيها يقول :

(نحن شهداء مبادىء خالدة ، يبكى حظنا الملايين من الخلق، ويتاوه الوطن لمصابنا .. ولو كنت مت وانا فى اوج عظمتى لبقيت الى الأبد لغزا لايحل) .

المارشال كوتزوف

القائد المجهول الذى جر نابليون بونابرت الى نهايته على مشارف موسكو ، وأنقذ روسيا من الضياع بفضل .. الصبر ، والوقت .

كان نابليون بونابرت يمنى نفسه بالسيطرة على أوربا ، ولم يكتف بما وصل اليه من انتصارات وفتوح ، وانما أراد كل شىء .

ولهذا قرر غزو روسيا ــ رغم ما كان بينه وبين امبراطورها اسكندر ، من اتفاق وصداقة وتعاون ــ وكان قد هزم كل جيوش أوربا ، ولم يبق أمامه سوى جيش روسيا .

وفجأة وجد الروس بلادهم تحت أقدام الغــزاة فى حرب صعبة المراس طويلة الأمد متدفقة الدماء .

وتلفت الشعب والجيش فى ارتقاب المنقذ .. الرجل الذى يستطيع أن يقف فى وجه الأعصار ، ويرفع يده فى وجه نابليون ، وينقذ روسيا من البطش والمهانة .

واجتمعت الكلمة على قائد متواضع ، أعور حنكتــه التجارب فى الحــروب ، ومع نابليون بالذات ، وكان يجمع بين الاتزان والجسارة ، كان يحسن تقدير الموقف ويجيد تنفيذ الخطة .

كان القائد الذى اختارته العناية لمنازلة نابليون بونابرت ، وانقاذ روسيا ، هو كوتزوف ..

ميخائيل لاربونوفتش كوتزوف - أمير سمولينسك (١) .

وكانت خطته : الصبر والوقت .

ولد كوتزوف في بطرسبرج (لينينجراد) يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٧٤٥ .

والتحق بالجيش وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، فحارب فى بولندا سنتى (١٧٦٤ - ١٧٦٩) وفى تركيا سنتى (١٧٧٠ - ١٧٧٤) وفقد احدى عينيه فى القتال .

ورقى الى رتبة اللواء فى ١٧٨٤ ، وعين حاكما عسكريا فى «كريميا » تحت امرة القائد الروسى الشهير « سوفاروف » الذى تكشف مواهب كوتزوف فدفع به الى حيث تتبعه الأنظار والأفكار .. والثقة .

وبرز كوتزوف فى معارك الحرب التركية عامى (١٧٨٨ - ١٧٩١) فى أوخاكوف وأودسا وبندا وريمنسك وماشين ورقى الى رتبة الفريق ثم تقلب في عدة وظائف دبلوماسية وعسكرية منها سفير روسيا فى القسطنطينية وحاكم عسكرى مدينة بطرسبرج .

وفى عام ١٨٠٥ قاد الجيش الروسى الذى اشترك فى منازلة نابليون عند غزوته للنمسا ، واستطاع أن يحرز نصرا محليا فى معركة « رونشتين » العنيفة .

وأخذ كوتزوف يتتبع أنباء بونابرت ويدرس خططه ويراجع اساليبه لكى يكشف أفكاره ويتعرف الى مناوراته وامكانياته ، فقد كان يعلم انه لابد من هزيمة نابليون لكى تستريح أوروبا كلها .

وقبيل نشوب معركة أوسترلتز كان القادة خصوم نابليون

---

(١) مدينة روسية مشهورة ، كوفى ، كوتزوف باسمها ، تقديرا لبطولته العسكرية .

يتشاورون .. وأخذ كوتزوف يتتبع المناقشة صامتا حتى اذا طلبوا منه ابداء رايه قال فى ثقة وثبات :

« رأيى أن لاتكون هناك معركة على الاطلاق » .

أى أنه كان يرى تفادى المعارك الحاسمة حتى لا يستطيع نابليون أن يدمر القوات العسكرية المضادة له ، وانما كان رأى كوتزوف القيام بمناورات وعمليات انسحاب وهجمات الفدائيين والأهالى مما لايعطى نابليون فرصة الانتصار السريع ويؤذى خطوط مواصلاته ويعرقل خططه القائمة على السرعة والعنف .. وبذلك لاتكون المعركة مجرد جولة سياحية من جولات نابليون المشهورة فى ملعبه المفضل .. ولم يؤخذ برأى كوتزوف ، ودارت المعركة ، واستطاع نابليون أن يهزم الجيشين الروسى والبروسى فى عملية خاطفة .

وكاد كوتزوف أن يفقد حياته فى هذه المعركة ، ولكن القدر اكتفى بان يعطيه عدة أوسمة من الجراح .

وبين سنتى ١٨٠٦ ، ١٨١١ تقلد كوتزوف مناصب القيادة فى لتوانيا ثم فى كييف .. وبقى مدخرا حتى اقبلت الساعة الحاسمة .

دخل نابليون روسيا على رأس « الجيش الكبير » تؤازره قوات عسكرية تمثل اثنتى عشرة دولة أوروبية . وهبت روسيا شعبا وجيشا وحكومة لتدفع هذا الاعصار الجرار ، الذى استمر مندفعا عبر سمولنسك ، ثم بورودينو .. وأصبحت موسكو هى الهدف .

وكان الجيش الروسى يلتزم خطة الانسحاب مع القيام بأعمال المؤخرة ، وهى تعطيل العدو وتصعيب طريق التقدم .

وكان الشعب الروسى طوع أمر قادته فاشترك فى مواجهة الهول وتحمل المآسى التى انصبت عليه . كان الأغنياء الروس

يتخلون عن قصورهم وعمائرهم ، والفقراء الروس يحرقون الزرع ويقيمون كل عقبة يستطيعونها في وجه الغزاة ..

وكان الجيش الفرنسي لايحارب الجيش الروسي بل يغزو مدنا محترقة ويخوض حقولا من الاشواك والصخور والدماء والأشلاء ! ويتقدم بين الخرائب والأنقاض .. الى مستقبل مجهول .

وقد حدثت وقفة عند « بورودينو » ولكن لم تكن معركة فاصلة ، فانسحب الجيش الروسي كما تتراجع الكرة فور اصطدامها بكرة أكبر حجما واثقل وزنا وقد اندفعت الكرة الاقوى من تأثير الصدمة ايضا شوطا .. الى الامام ..

وارتد الجيش الروسي صوب العاصمة القديمة بعد أن انسحب ثمانين ميلا ثم أخذ الجيشان يستعدان خلال خمسة اسابيع للمعركة التاريخية الحاسمة .

كان هذا الخطر المروع الذى تعرضت له روسيا ، والذى أوشك أن يصبح كارثة محققة كانت تختلف في أسبابه ووسائل دفعه عقول كثيرة .. الا عقلا واحدا ارسخت الحقائق في أعماقه .. انه كوتزوف القائد العام الذى كان يعيش في خضم هذا المعترك الرهيب ويرى أمام عينيه مصير بلاده يتأرجح بين البقاء الفناء !..

وعلى مشارف موسكو بعث كوتزوف باحد قواده الجنرال « أرمولف » يستطلع الموقف فعاد يقول انه ليس في الامكان الدفاع خارج موسكو ، واذا اشتبك الجيشان فسوف يخسر الجيش الروسي معركته الأخيرة .

وهرع كوتزوف الى عربة القيادة وانطلق في الطريق الذى يتقدم عليه الفرنسيون الى موسكو .. ودار حول المكان ، وهناك استدعى جنرالاته وجمع مجلس حرب في أرض المعركة للتداول في الموقف والنظر في الحلول المختلفة ..

كان هناك راى يقول بالدفاع عن موسكو .

ويتزعم هذا الراى الجنرال بنجسن ، قائد القوات الروسية فى معركة فردلاند .

بدأ بنجسن الحديث بسؤال عن الهدف : هل نخلى العاصمة التاريخية المقدسة بغير معركة أو ندافع عنها .

ثم علق على ذلك بقوله : حقا انه لم يكن فى الاستطاعة ولا من المصلحة ان نشتبك مع الفرنسيين فى « فيلى » ولكن الأمر هنا يختلف حيث تتجلى روح الدفاع الوطنى ويطفى حب موسكو مما يجعل الدفاع عنها ممكنا بل حيويا .

ثم أعلن رأيه أنه لابد أن يدافع عن العاصمة التاريخية المقدسة .

وكان ماكرا .. فاذا فشلت العملية يقع عبء الفشل على كوتزوف الذى سحب الجيش الى موسكو بغير معركة ، واذا نجحت يكون الفضل له (بنجسن) واذا لم تحدث المعركة يكون هو قد برأ ساحته من جريمة قهر العاصمة ، لأنه أدى واجبه واعلن رأيه فلم يؤخذ برأيه .

وانقسمت الآراء .. كان يؤيد بنجسن كل من أرمولوف ودكتروف ورافكس .

أما بقية القادة فكانوا ينظرون الى الأمر الواقع ، وهو ان موسكو بدأت تغزى فعلا وكان تفكيرهم فى طريقة وطرق الانسحاب عن موسكو .

ونظر الجميع الى الرجل الصامت الذى كان يسعل بشدة ويرسل بعين واحدة نظرات قاسية حين لايعجبه كلام .. وذلك دون ان يفقد مظهر الثقة والكفاية .

وبدأ كوتزوف يتكلم :

ان فكرة تحريك القوات الروسية من مواقعها الحالية القريبة

من العدو ، لتشرع فى الهجوم تعتبر عمجية خطيرة محكوما عليهـا بالفشل ، ولها سوابق عديدة فى تاريخ الحروب .. خذوا مثـلا معركة « فريد لاند » واظن ان الكونت بنجسن يذكرها جيدا وقد انتهت بالاخفاق لأن القوات غيرت أماكنها وهى على مقـربة من العدو .

يجب أن يكون مفهوما اننا سنخسر اذا شرعنا فى الهجـوم ..

إن الصبر والوقت هما اعظم المحاربين ، هما خيرة أبطالى .

ان التفاحة لم تنضج بعد ، ومن المـؤلم ان تشرع فى قضـم تفاحة غير ناضجة لأنك لن تتلقى غير مرارتها وستصاب أسنانك بالمشقة ، ومعدتك بسوء الهضم اصبر حتى تنضج التفاحة .. وتسقط وحدها ..

اننا لانبحث أيها السادة فى العاصمة التاريخية المقدسة ، ولكن المهمة التى دعوتكم اليها هى مهمة حربية .. هذه المهمة هى انقاذ روسيا .. وهل من الأفضل أن ننسحب عن موسكو وبغير معركة او ندخل المعركة مغامرين بمصير الجيش ومصير موسكو ..؟

هذه هى المشكلة التى أريد أن تناقشوها ..

وأخيرا قال كوتزوف :

ايها السادة لقد عرفت وجهات نظركم .. بعضكم لا يوافقنى ولكن باسم الثقة التى أودعنيها الامبراطور والشـعب ، أصـدر الأمر .. بالانسحاب ..

وانصرف الجنرالات ، وألقى كوتزوف راسـه بين ساعديه المرتكنتين على طاولة الاجتماع وراح فى نوبة فكر هائلة .

صدر الأمر التاريخى الرهيب بالانسحاب عن موسكو .

وتراجعت عنها القوات الروسية ومعها الجرحى والاهـالى .

وتركت مجموعات متناثرة من الجنود والقـوانيين والاهالى

يشنون حرب العصابات « الفـــوريلا » لتعطيل الفرنسيين وازعاجهم وتدمير معنوياتهم .

ودخل نابليون موسكو . لم يجد الجيش الروسى كمـا كان يتوقع • وانما وجد النار والدمار •

وقال له ضابط مخابراته : ان موسكو خالية مفتوحة ..

وذهل الامبراطور وصاح فيمن حوله : الى بالعربة •

واستقل عربة القيادة ومعه أركان حربه ، وجرى بهـا هنا وهناك ..

موسكو خالية .. مهجورة .. اى قرار جنونى ؟ ثم اردف ؟ ان المسرحية لم تتم فصولا ؟ ..

وفي اول اكتوبر بعث نابليون رسالة مؤرخة في موسكو الى كوتزوف .. يعرض عليه الصلح :

وجاء رد كوتزوف حاسما : لا .

وبدأ الجيش الكبير يشعر بخيبة الأمل ، كالسائر فى البيداء انهكته الرمال والفواصف وخدعه السراب .. واخيـرا تجسم لقادته وجنوده اليأس والفزع ثم دوت نيـران الجيش الروسى التى كانت مختزنة للساعة الحاسـمة .

وبدأ التحول الخطير في المعركة التاريخية .

ولوى نابليون عنان جواده • واطرق برأسه وبدأ التراجـع •

ثم كانت ساعة فى ليلة حالكة وقد جاء احد الفرسان ينهب الأرض ويصرع الثواني والدقائق لكى يصل الى مقر القـــائد الكبير .. كوتزوف .. وكانت معه رسالة فيها كلمات قلائل .. ايقظت الجنــرال النوبتجى كمـــا لو كانت دلو ماء انسكب على وجهه الصامت ودخل الجنرال النوبتجى والفارس يحملان اهـم نبأ في حياة كوتزوف .

بل اهم نبأ فى تاريخ تلك الحقبة من الزمان ..

نابليون ينسحب ؟.

وكان كوتزوف غارقا فى ظلمة حجرته ورأسه على كفه ؛ وعينه الوحيدة تخترق الفضاء ... فقد كان لا يعرف النوم ، ولا يخلع ثوبه العسكرى ، ولا يفرغ من التفكير والتدبير .

وما ان فرغ المتحدث من تبليغ رسالته حتى ارتمى كوتزوف على الارض ، وزحف الى محراب صلاته .. وقال :

ايه يارب .. ايها الخالق الاعظم الذى تسمع صلاتى .. انك انقذت روسيا ..

اشكرك يارب ..

المارشال روميل

كان « ثعلب الصحراء » ظاهرة غير عادية ورغم هزيمته فقد اعتبر اعظم قائد فى الحرب العالمية الثانية من الجانبين ..

عندما فكرت فى الكتابة عن الجنرال فيلد مارشال اروين روميل كأحد النماذج المتفردة بالعبقرية العسكرية ، قفزت الى خاطرى آراء خصومه فيه ، وقد قيل : الحكم ما حكمت به الاعداء .. فألمعت بما كتبه رجال العسكرية والسياسة فى المعسكر المضاد لالمانيا قبل ان اعيد قراءة كتب المؤيدين والمحايدين، واستعرضت آراء الفيلد مارشال ويفل ، والجنرال أوكنلك ، والخصم السياسى الداهية سير ونستون تشرشل ، والمعقب الحربى النقادة كابتن ليدل هارت ، وغيرهم من الاعلام ، فرأيت فى ذلك ما يفيض عن الحاجة اذا قصدت الى وضع عشرات الصفحات تمجيداً لروميل واشادة بعبقريته العسكرية .

وقد انفرد روميل بكأس البطولة والشهرة بين قادة الحرب العالمية الثانية ، وكان اعظم قادتها بلا مراء رغم انه خرج من المعركة مهزوما . وهو فى ذلك يشبه نابليون وهانيبال وروبرت لى الذين هزموا فنصرهم التاريخ ، وخسروا المعركة ولكن كسبوا الخلود .. ولم يحظ الغالبون بشىء من شهرتهم وامجادهم .

فوق مستوى القـادة

كان روميل ، « فلتة » فهو لم يكن قائدا عاديا ، وقد وصفه خصمه العتيد الجنرال أوكنلك بقوله : « ان روميل كان قـائدا فوق مستوى القادة » ووصفه الكابتن ليدل هارت بقوله « لقـد كان روميل عبقرية عسكرية ولا يبلغ مبلغه قائد آخر » .

وكان الجنرال اوكنلك يكافح لتثبيت قلوب جنـوده الذين روعهم اسم روميل وحرمهم النوم واخذ يصدر اوامره بمقـاومة الذعر ودفع الرهبة التى اقترنت باسم روميل « ان هناك خطرا حقيقيا ، فصاحبنا روميل قد اصبح سلحرا لجنودنا ، يتحدثون عنه ويشغلون به ان روميل ليس انسانا فوق البشر ، وان كان بلا ريب ممتازا وقديرا .. انني اناشدكم ان تستخدموا كـل الوسائل لتبددوا هذه الأفكار التي استولت على عقول الجنـود فجعلتهم ينظرون الى روميل على انه اكثر من قائد المانى » .

وقد سجل أوكنلك ـ كقائد وانسان ـ رأيه التـاريخى فى روميل فقال :

لقد احترمته لشجاعته ، اذ كان قادرا على عمـل كل شيء ، وكانت حروبه تمتاز بضروب الشجاعة والفروسية التى تميزت بها العصور الوسطى ولم يعد لها اثر فى ايامنا ، وهذا ما جعله يكتسب احترام القادة البريطانيين وينال محبة اعـدائه قبـل اعوانه .

أول الطريق

ولد أروين روميل فى سنة ١٨٩١ ، واخـذ طريقـه الى المعسكر فى سن التاسعة عشرة واصبح ضابط مشـاه فى سنـة ١٩١٢ وعرف عنه ميله الى الضبط والربط وتدريب المستجـدين وشغفه بالبحث فى التنظيمات العسكرية فى عمق ، وروية ، كما

كان موضع تقدير زملائه باحترامه للتقاليد العسكرية وتميزه بالصفات الحسنة ، فلا تدخين ولا خمر ولا سهرات ولا نزوات .

وقد وصفت بعض المراجع « الملازم روميل » بأنه كان شجاعا الى أبعد الحدود وانه كان « متحفزا للهجوم ولا يعرف التعب » وقد فاز بالصليب الحديدى في واقعة عرضته فيها شجاعته لرصاص العدو ، فلما خرج من المستشفى بعد ثلاثة شهور تعرض بفصيلته لضغط كتيبة مشاه اطبقت عليه من كل ناحية ولكنه قاتلها ثم افلت منها بعملية انسحاب شائقة تقلد على اثرها نيشان الصليب الحديدى من الدرجة الاولى .

ولما نقل الملازم روميل الى كتيبة ورتبرج الجبلية حارب فى رومانيا وايطاليا حيث منح وسام الجدارة الالمانى ـ الذى يقابل صليب فكتوريا ـ لما ابداه من براعة فى القيادة ، وحذق فيما اقدم عليه من الأعمال الحربية .

ومن الحوادث المشهورة فى ذلك الحين قيامه بعملية تجاه كابورتيو في اكتوبر ١٩١٧ فلما تم له تحقيق الغرض كان قد مشى على قدميه خمسين ساعة متوالية وصعد سبعة آلاف قدم وأسر مائة وخمسين ضابطا وتسعة آلاف جندي وواحدا وثمانين مدفعا .

واصبح اروين روميل يوزباشى فى سنة ١٩١٨ ثم صار معلما بمدرسة المشاه فى درسدن خلال عامى ٢٩، ٣٠ حيث عكف على وضع كتابه المشهور « هجوم المشاه » الذى يعتبره حتى اليوم مرجعا ممتازا فى تكتيكات المشاه الصغرى وخاصة وقد وضعه « استاذ فى فنه » .

قائد حرس هتلر

وقد اختير روميل قائدا لحرس هتلر ، وكان رجلا مطبوعا على الولاء مقدسا للتقاليد العسكرية فواتته الفرصة لدراسات

عليا ، وخاصة فى فاتحة الحرب العالمية الثانية فكشف خطط الحرب الحديثة ومرت تحت عينيه جيوش المانيا الجرارة فى غزو بولندا وادرك خصائص الحرب الحديثة واهمها التعاون بين قوات الجو والبر ، واهمية القوات المدرعة ، وخاصة اذا استخدمت فى حشود كبيرة ، كذلك ضرب مؤخرة العدو فلما عين قائدا للفرقة السابعة المدرعة ، أو « فرقة الشبح » ـ كما اطلق عليها فيما بعد ـ كان قد ادرك كل ما هو مطلوب منه ؛ واخذ يطبق نظرياته التكتيكية ويضع افكاره موضع التنفيذ .

قيادة الفرقة المدرعة

دفع روميل فرقته المدرعة الى الميدان فاحرزت النصر فى معركة بعد اخرى ومن المأثور عنه غزوته الموفقة فى شربورج ؛ وعلى اثرها سلمت فرنسا .

وقد احصيت خسائر الفرقة السابعة المدرعة البنزر خلال معارك ستة اسابيع فاذا هى :

٦٨٢ قتيلا ـ ١٦٤٦ ـ جريحا ـ ٢٩٠ مفقودا ـ ٤٢ دبابة .

أما مغانمها فكانت :

٩٧٦٤٨ اسيرا ـ ٧٧٢ مدفع ميدان ـ ٦٤ مدفع دبابات ـ ٤٥٨ دبابة ـ وعربة مصفحة ـ ٤ آلاف لورى ـ ١٥٠٠ سيارة ـ ٢٠٠ عربة بجر .

وكتب الى زوجته يقول :

« قامت الفرقة بهجوم على شرلورج واستولت على قلاع منيعة رغم قوة الدفاع عنها . لقد صادفت لحظات حرجة للغاية

اذ كان العدو يفوقنا في العدة والعدد نحو عشرين مرة او تزيد . وكان لديهم فضلا عن ذلك بين عشرين وخمسة وثلاثين حصنا مجهزا وبطاريات عديدة • ومع هذا كله فقد استطعنا في قوة وسرعة ان ننفذ امر الفوهور الخاص بالاستيلاء على شربورج باسرع ما يمكن » •

في شمال افريقيا

في فبراير عام ١٩٤١ قطع روميل اجازته القصيرة حيث استدعى لمقابلة الفيلد مارشال براوشتس الذى انهى اليه بالمنصب الجديد الذى وضعه فيه هتلر ، وهو « قائد قوات الفيلق الالمانى في شمال افريقيا » •

وكانت أحوال الايطاليين في ليبيا تسير من سيىء الى اسوأ ، فأرسل هتلر فرقتين لمعاونتهم ، احداهما خفيفة والاخرى من فرق الباتزر ، وكانت آخر الاخبار من الميدان الافريقي تقول بأن المارشال ويفل قد استولى على بنغازى بعد ان دمر الفرقة المدرعة الايطالية واخذ يستعد لدخول طرابلس •

ولهذا كان اول ما تبادر لذهن روميل عند التقائه بالجنرال كيسلرنج ـ قائد القوات الجوية الالمانية في صقلية ـ ان طلب اليه ضرب ميناء بنغازى في الليل ثم مهاجمة القوات البريطانية ـ ومن عجب ان روميل علم أن الايطاليين لم يطلبوا قذف بنغازى بقنابل الطائرات لسبب خطير .. وهو ان عددا من الضباط الايطاليين والرجال ذوى الشأن يملكون بيوتا فيها ـ وقد استأذنت القيادة الجوية من قيادة هتلر • ضرب بنغازى ، فجاءتها الموافقة في الحال •• واندفعت الطائرات الالمانية تضرب بنغازى وقوات البريطانيين المتقدمة ، وتدك مواصلاتهم وخطوط تموينهم •

وفي يوم ١٢ فبراير هبطت طائرة روميل في طرابلس ؟ بينما غادر المارشال جرزباني قيادته •

وجد روميل متاعب اخرى فى انتظاره ، متاعب ليست من اعدائه ولكن من حلفائه فقد واجهته اخبار انسحاب الايطاليين وتسليمهم اسلحتهم ومؤنهم وهبوط معنوياتهم الى حد ان ضباطهم اخذوا فى اعداد حقائبهم املا فى العودة الى ايطاليا .

وقد فكر روميل بسرعة وأصدر امره اليومى « لا خطوة بعد الآن الى الوراء » وقدر ان البريطانيين لايستطيعون التقدم ما دامت هناك مقاومة ، وفى فترة الانتظار هذه الحرجة أخذ روميل يحشد قواته ويضع خططه ، ويوطد صلته بالقادة الايطاليين .

وبدأ زحف قوات روميل فرأى البريطانيين شيئا جديدا .. خطيرا وتقدمت الدبابات الالمانية تأخذ طريقها عجبا تظللها سحابة من الطائرات وظهرت علامات النصر .. وتحقق راى روميل « النصر للجانب الاقوى » .

وانسحب الانجليز بعد قتال عنيف فقدوا فيها الفى اسير بينهم ثلاثة من القادة العظام : اكنور ، ونيوم ، وجامبير .. ثم تفطن القيادة الانجليزية الى غرض روميل ولم يجل بتفكيرها انه يجرؤ على قطع هذه الصحراء الشاسعة مبتعدا عن قاعدته .. ففاجأتها اساليب روميل وبعثرت خططها وقلبت نظرياتها ، فكان الامتداد السريع ، واستطاع روميل ان يطوى الصحراء فى اسبوع واحد من بنغازى الى السلوم . .

بين شقى الرحى

عندما انتصر روميل فى شمال افريقيا لم يكن أكثر من عدوه عددا ولا عدة باعتراف تشرشل نفسه الذى صرح « ان القوات الانجليزية كانت متفوقة فى عدد الدبابات بنسبة ٧ : ٥ ومتفوقة أيضا فى المدافع بنسبة ٨ : ٥ ومتفوقة فى الجو .

وكان روميل يحارب بعيدا عن قاعدته فتعرضت مواصلاته

لهجمات الطائرات البريطانية التى كانت مصدر خطر كبير فى الوقت الذى شغلت فيه الطائرات الالمانية بميادين اخرى .

ولم يلق روميل من حلفائه الايطاليين المعاونة الجادة فى الوقت الخطير الذى كانت تعانيه قواته وهى تكافح بشق الانفس لدفع العدو المتفوق فى كل شيء .

ولم تستطع القيادة الالمانية العليا أن تستمع الى رجوات روميل المتكررة فى معاونته ، اذ كان الميدان الروسى شغل القيادة الالمانية الشاغل ، وكان الموقف خطيرا فحجب المسرح الافريقى عن عيون المسئولين .

ثم وقع الحادث التاريخى الخطير وهو فتح الميدان الثانى فى شمال غرب افريقيا فى الوقت الذى بدات فيه معركة العلمين .. واصبح روميل بين شقى الرحى .

وفتح التاريخ احدى صفحاته الخالدة ليسجل لأحد القادة العظام فى جميع العصور ما يفعله فى مثل هذا الموقف الشاذ .

كان روميل يحارب فى عدة جبهات :

١ ـ القيادة العليا الالمانية التى لا تمده بحاجياته الحيوية .

٢ ـ القيادة الايطالية العاجزة عن معاونته .

٣ ـ القوات الجوية المعادية التى تدمر خطوط مواصلاته ومصادر تموينه .

٤ ـ التفوق العددى الهائل لخصومه فى الرجال والطائرات والاسلحة وكافة المعدات .

كانت نتيجة معركة العلمين معروفة « سلفا » .. ولكن كان معروف أيضا أن القوات الالمانية لن تتلقى هزيمة نهائية ويقضى عليها قضاء مبر .

اما عن الشق الاول من هذه النتيجة ، فلم يكن فى وسع أى قائد فى الوجود منع الهزيمة واما عن الشق الثانى ، فقد استطاع القائد العبقرى ان يمنع الدمار ويتفادى الكارثة ويمرق بجيشه فى الوقت المناسب وباقل خسائر ممكنة .

لقد كانت معركة ذات جانب واحد .. فلما انهزمت قوات المحور كان التاريخ قد سجل أن روميل هو أعظم قائد فى الحرب العالمية الثانية .

عزيزتى لو :

ان المعركة تشتد وطأتها علينا . ولقد دفعنا حشود العدو عن مواقعنا . اننى ابذل جهدا بالغا لانقاذ الجيش ولست أدرى هل انجح فى ذلك قضيت الليل مستلقيا مفتوح العينين أعمل فكرى فى طريقة لانقاذ قواتى .. اننا نواجه أياما فى غاية السوء بل أسوأ ما يمكن أن يمر بانسان .

ان القتلى اسعد منا ، فقد انتهى كل شىء بالنسبة لهم .

اننى أفكر فيك بكل حب وتقدير ، ومن يدرى ، فقد نلتقى مرة اخرى .

(روميل)

الرتب والنياشين

كان روميل فى جميع أدوار حياته جنديا لم يستهوه شىء غير الجندية ، ولم يعرف عن الجندية غير خصائصها وحدودها ، فلم تكن عنده سوى بذل الجهد لتحقيق النصر أو دفع الهزيمة ، ولم يخطر بباله قط أن الجندية مغنم فعزف عن مظاهرها وأبهتها واحتفظ بالهيبة والكرامة .

وقد خبر روميل الميدان مبكرا ، واحرز النصر كثيرا ، ونال الأوسمة والرتب والنياشين بلا رغبة منه أو اهتمام ، حتى أنه

حين أنعم عليه بأعظم الرتب « فيلد مارشال » كان مشغولا عنها بأحداث القتال فلم يغير علامات الكتف وظل عـلى حاله بعـلامة الجنرال حتى قدم له المارشال كسلرنج علامة من علامات رتبته .

وعندما استقبله هتلر فى برلين وسلمه عصا المارشالية بعث الى زوجته يقول :

(كنت افضل لو كان أعطانى فرقة أخرى بدلا من رتبة الفيلد مارشال هذه) .

المثل الأعلى

كان روميل يعتقد أن المثل هو خير معلم .

وكان يطلب من ضباطه أن يكونوا قدوة حسنة لجنودهم .

ومما يذكر له انه كان لايترك مناسبة الا ويناشد فيها الضباط أن يعتنوا بأنفسهم فى الخاص والعام من الأمور .

ويتضح ذلك جليا من الخطاب الذى القـاه ـ وهو قائد المدرسة الحربية ـ فى الخريجين . وقد جاء فيه :

- كن نموذجا لرجالك ، فى عملك ، وفى حياتك الخاصة .
- كن مرنا وراثقا ، وعلم معاونيك أن يكونوا كذلك .
- حاذر من النزق والحدة وانفلات الأعصـاب وارتفـاع الصوت .

كان شليفن يقول : « ان القائد العام هو عقل الجيش » أما روميل فيقول :

«ان الحرب الحديثة قد اتسع نطاقها ، وتعددت ميادين نشاطها وزادت الاختصاصات مما يقتضى أن يكون هناك كثرة من الضبـاط ـ وخاصة فى مراكز الاركانحرب ـ لهم مثل صفات القائد العام

واحاطته وعزيمته ـ لكى تعمل جميع الأدوات بنجاح ســواء فى ميدان التكتيك أو ساحات الامداد والتموين .

وروميل صاحب نظريات حربية صدرت عن عقل كبير وفكر مجرب ، فقد خرج من الحربين العالميتين بدروس هامة ، منها :

١ ـ اهمية تعاون الطائرات والقوات البرية تعاونا يجعلهما قوة واحدة .

٢ ـ أهمية هجوم القوات المدرعة بقوة متجمعة كبرى .

٣ ـ ضرورة التفكير السريع والانقضاض السريع .

٤ ـ وضع الخطط على أسس الواقعية لاتدخلها الأوهام .

٥ ـ ضرورة التدريب الجيد العملى الواقعى قبل المعركة .

٦ ـ اهمية الشدة والصبر والتفاؤل .

٧ ـ الجانب الذى يمجك المدفع الاشد قوة يكون لديه السلاح الغالب .

٨ ـ عدم التقيد بالروتين أو أقوال وخطط الآخرين .

ويبلغ روميل غاية القول عندما يجرى قلمه بالسهل الممتنع ، فيروى الحقيقة الحربية التاريخية :

ان الجانب الاقوى هو الذى يحرز النصر .


مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر

هذا الكتاب

لا تستطيع أية جماعة من الناس أن تقوم بعمل مشترك - كالحرب - من غير قيادة تنظم شئونها وتعبئ قدراتها وتضع الأفكار والخطط التى تبلغ بها غاياتها ..

وللقيادة الحربية أصول ومواصفات قديمة ، وقد نمت وتطورت وصارت فى مقدمة عوامل النصر ..

وكبار القادة الذين حركوا آلاف وملايين البشر فى وادى الموت وقرروا مصائر أوطانهم فى ساعات الخطر الداهم .. كانت لهم مزايا ومواهب متعددة ، وفى مقدمتها الشجاعة والكد وتقديس الشرف العسكرى ومعرفة الشعور والعواطف التى تؤثر فى الرجال ..



